الفصل الأول

ملامح الكاريكاتير السياسي منذ ثورة عرابي وحتى ثورة يوليو (١٨٨١ - ١٩٥٢)

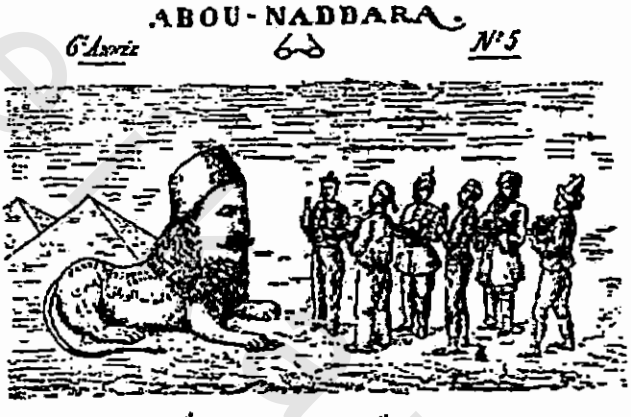

Mieux vaut crever que reculer.

لما رأونا الجيوش دخلت عاصمتهم بيد - وحوّطنا الحدائق بسياج وشدة بيد - يقلّبون الوعيد والتهديد - ويقولون التقيل وضع البوم مفيد - ريثما نرى مطلع الفجر ما عدش بعيد -

IMP LEVY,RUE DE LA VRILLIÈRE ... RUE DE RICHELIEU PARIS

obeikan.com

الفصل الأول

ملامح الكاريكاتير السياسي
منذ ثورة عرابي وحتى ثورة يوليو
(١٨٨١ - ١٩٥٢)

كانت مصر دائمًا محطًا للأطماع الاستعمارية وخاصة من قبل الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية اللتين وجدا فيها آفاقًا استثمارية جديدة وطريقًا استراتيجيًا يمكنه أن يصل الهند بالغرب. حاولت الإمبراطوريتان استمالة والي مصر آنذاك محمد علي باشا* لتحقيق أغراضهما التوسعية، إلا أن محاولاتهما باءت بالفشل، فقد كان محمد علي أكثر إدراكًا لأطماع القوى الاستعمارية التي لا تشبع، كما أنه كان أكثر حرصًا على توجيه جهده وطاقاته لبناء مصر الحديثة والنهوض بها في مختلف المجالات سواء المدنية أو العسكرية. ولكن للأسف لم يسر أبناؤه وأحفاده على نفس منهجه ولم يكن لهم نفس بعد بصيرته للحيلولة دون وقوع مصر فريسة سهلة للتدخل الأجنبي.

وعرفت مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا** الصحافة الشعبية والرسوم الكاريكاتورية التي ظهرت لأول مرة على يد الفنان يعقوب صنوع على صفحات صحفه الهزلية، والتي عرفت بنقدها اللاذع لسياسات الخديوي إسماعيل ومن بعده الخديوي توفيق.

ومع قرب مغيب شمس القرن التاسع عشر أسدل الستار عن قصة كفاح ثورة عرابي العسكرية التي تحولت إلى ثورة قومية حينما أيقظت وجدان الشعب لينتفض ضد الظلم والاستبداد. وتلفحت مصر بالسواد لتسطر صفحات مؤسفة من تاريخ مصر القومي والعسكري بعد هزيمة العرابيين، لتقع تحت براثن الاحتلال البريطاني وليتجرع المصريون كؤوس الهوان والإذلال على يد محتليهم فاق أضعاف ما كانوا يتجرعونه قبل الثورة.

---

* ولد عام ١٧٦٩ وتوفي عام ١٨٤٩، تولى عرش مصر عام ١٨٠٥ وحتى ١٨٤٨م

** ولد عام ١٨٣٠ وتوفي عام ١٨٩٥، وتولى حكم مصر عام ١٨٦٣ وحتى عزله عام ١٨٧٩. وتولى من بعده الحكم ابنه توفيق حتى وفاته عام ١٨٩٢.

وبذلك دخلت مصر القرن العشرين وهي واقعة تحت الاحتلال البريطاني مثقلة بأعبائه ومساوئه من نهب للثروات وسيطرة على رأس المال وتدخل في شؤون الحكم. ونتيجة لذلك، شهدت مصر تصاعد في حركات المقاومة الشعبية والحركات الوطنية المناهضة للاحتلال والمطالبة بالاستقلال.

وشهدت مصر أهم ثورة على الإطلاق في تاريخها الحديث وهي ثورة ١٩١٩ والتي شارك فيها مختلف طوائف الشعب كرد فعل على نفي الإنجليز لسعد زغلول ورفاقه، إثر سعيهم لعرض مطالبهم في مؤتمر باريس للسلام.

واتسمت فترة العشرينيات والثلاثينيات بالتصعيد ضد الاحتلال الإنجليزي والحكومة والقصر. وشهدت هذه الفترة تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ وإصدار دستور ١٩٢٣ ثم اندلاع المظاهرات ضد إلغاء الدستور وضد حكومة إسماعيل صدقي وضد دستوره الجديد واندلاع ثورة الطلبة مطالبين بإعادة الدستور وطرد الاستعمار، كما سيتم عرضه لاحقًا. أما فترة الأربعينيات فقد شهدت توترات على الصعيد الداخلي والدولي مع اقتراب انتهاء الحرب العالمية الثانية والتي أدت إلى حادثة ٤ فبراير الشهيرة التي كشفت عن مدى نفوذ وسيطرة الإمبراطورية البريطانية وعن مدى ضعف وهشاشة القصر. أما فترة الخمسينيات فقد أسدلت الستار عن ١٤٨ عامًا لحكم سلالة محمد علي إثر قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ وإجبار الملك فاروق على التنازل عن العرش لابنه فؤاد والرحيل إلى منفاه ثم إنهاء الملكية وإعلان الجمهورية في عام ١٩٥٣.

ومع أن معظم هذه الفترات اتسمت بفرض رقابة صارمة على الصحف والمجلات، إلا أن فترة الثلاثينيات شهدت ثراءً كبيرًا في حركة الرسوم الكاريكاتورية التي حرضت المواطنين ضد سياسة صدقي وحكومته وحزبه ودستوره الجديد، وصعدت ضد الأحزاب بعضها البعض. كما لعبت الرسوم الكاريكاتورية لاحقًا دورًا في التمهيد لثورة ٥٢ بشحن قوى الشعب ضد الاحتلال وضد فساد القصر

الثورة العرابية (١٨٨١- ١٨٨٢)

"لقد خلقنا الله أحرارا، ولم يخلقنا تراثا وعقارا. فوالله الذي لا إله إلا هو إننا لن نورث ولن نستعبد بعد اليوم"

(أحمد عرابي يخاطب الخديوي توفيق في ٩ سبتمبر ١٨٨١) (١)

تعتبر الثورة العرابية من الأحداث الخطيرة التي غيرت بهزيمتها معالم وجه الخريطة السياسية والاقتصادية وأدت إلى إعادة تشكيل موازين القوى في المنطقة العربية بشكل عام وفي مصر بشكل خاص. لقد كانت ثورة ضد الظلم والاستبداد وضد التدخل الأوروبي السافر في شؤون مصر الداخلية وضد الأوضاع الاقتصادية المتدهورة التي كانت تمر بها البلاد.

ولابد من الرجوع بذاكرة التاريخ للوراء لرصد لمحات من تطور الأوضاع الداخلية في مصر للوقوف على أسباب اشتعال الثورة العرابية. فمع نهاية حكم محمد علي قام صراع بين الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية على مدى الاستفادة من مصر بتحويلها لطريق يصل الهند بالغرب. فكرت إنجلترا باحتكار خط سكة حديد يربط بين الإسكندرية والقاهرة بينما فكرت فرنسا في حفر قناة تصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر لتصبح طريقًا بحريًا عامًا في إمكانه فتح آفاق جديدة أمام جميع دول العالم. إلا أن محمد علي قد رفض هذه المشاريع تمامًا وسحل عنه قوله: "أنا لا أريد أن أجعل وادي النيل ممرًا دوليًا..كما أني لا أرغب في إيجاد بوسفور آخر"(٢).

لم تفقد الإمبراطوريتان آمالهما في تنفيذ مشاريعهما الاستعمارية، فمع موت محمد علي استطاعت إنجلترا الالتفاف حول خليفته عباس الأول وإبرام عقد إنشاء خط حديدي يصل الإسكندرية بالقاهرة، أما حلم القناة فقدر له أن يتحقق على يد الخديوي سعيد ويظهر للنور على يد الخديوي إسماعيل، فقد افتتحت رسميًا في ١٧ نوفمبر عام ١٨٦٩(٣) لتصبح جزءًا حيويًا من المعالم الجغرافية ومنطقة صراع للتيارات السياسية في الشرق الأوسط، كما سنرى فيما بعد.

---

(١) الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى، "الثورة العرابية"، وزارة الثقافية في الإرشاد القومي، الإدارة العامة للثقافية، القاهرة، ١٩٦١، ص: ٥٠.

(٢) حسن حافظ، "الثورة العرابية في الميزان"، كتب قومية، القاهرة، (--١٩)، ص: ١٤-١٥.

(٣) حسن حافظ، المرجع السابق.

لم تجلب قناة السويس فقط العديد من الصراعات السياسية للمنطقة وإنما كانت بمثابة نكبة اقتصادية وويالًا شديدًا على مصر التي تحملت لوحدها معظم نفقات إنشاء القناة التي بلغت ١٨ مليون جنيه، لتسقط مصر في وحل من الديون يصل بها إلى بيع حصتها في شركة القناة لإنجلترا بثمن بخس عام ٨٧٥ '، ليضيع إسماعيل بهذه الصفقة أي هيمنة لمصر على القناة ويفتح باب للتدخل في الشأن الداخلي من خلال إدارة إنجليزية للمراقبة المالية[١].

وأصبحت مصر مسرحًا لبيوت المال الأوروبية وخاصة الإنجليزية تبرم فيه العقود وتعقد فيه الصفقات ومجالًا لنفوذ السلطان عبد الحميد الثاني، الذي كانت تشهد فيه دولته العثمانية ضعفًا شديدًا وتدهورًا، والذي كان يطمع أن يجر مصر لتكون تحت عباءته بعد أن شملها محمد علي ببعض الاستقلال في ذلك الوقت.

اشتهر الخديوي إسماعيل في ذلك الوقت بشغفه وولعه بالحضارة الأوروبية إلى الحد أنه كان مغرمًا بتقليدها، فقد كان كل همه أن يجعل من مدينتي القاهرة والإسكندرية باريسًا أخرى أو لندنًا، ومع أنه سار على عهد جده (محمد علي) في إرسال الشباب الجاد لبعثات لإتمام دراسته في أوروبا، إلا إنه كان أكثر قربًا من قيادي وموظفي الدول الاستعمارية وأصدقائه من الأوروبيين منهم إلى الشعب المصري.

وشهد عصره ميلاد الصحافة الشعبية التي وجد فيها سمة من سمات الحضارة الأوروبية والتي يمكن الاعتماد عليها في الدفاع عن سياساته ضد السلطان العثماني مثلها في ذلك مثل الصحافة الرسمية التي كانت تحت سيطرته وتوجيهاته، بينما وجدت فيها القوى الوطنية وسيلة لتوصيل أصواتها إلى الأمة. وخان إسماعيل حدسه هذه المرة فقد انتصرت الصحافة الشعبية للأصوات الوطنية ووكبت على نقد سياساته. ففيما يبدو أن إسماعيل كان محاكيًا للغرب في الشكل الظاهري فقط وليس في الجوهر، فهو يمنح التراخيص لإصدار الصحف وفي نفس الوقت يقوم بتعطيل صحف أو إغلاقها لنشرها نقدًا أو أفكارًا لا تروق له.

وكان الفنان يعقوب صنوع (١٨٣٩ – ١٩١٢) أول من دخل حلبة الصحافة الشعبية بسلسلة من صحفه الهزلية الفريدة التي بدأها بـ "أبو نظارة زرقاء" والتي كانت لونًا مختلفًا عن الموجود وقتها وذات طابع خاص، فقد حررها باللهجة العامية المصرية، كما

(١) عبد الرحمن الرافعي، "عصر إسماعيل"، دار المعارف، القاهرة، الجزء الأول. الطبعة الرابعة ١٩٨٧، ص. ١٠٥.

أدخل بعض اللهجات الأخرى كالتركية والشامية والإنجليزية والفرنسية والتي كان معتادًا أن تسمع في ذلك الوقت، واتسمت بالنقد اللاذع للخديوي إسماعيل وحاشيته ومن بعده الخديوي توفيق وحاشيته وللإنجليز وأطماعهم الاستعمارية، وحرضت ضد الظلم والاستبداد الذي كان يعانيه المصريون في ذلك الوقت من خلال المقالات والحكم والمواعظ والرسوم الكاريكاتورية التي كان بعضها أشبه بلوحات تشكيلية ساخرة، ليكون بذلك أول من أدخل فن الكاريكاتير إلى مصر.

ومن الجدير بالذكر أن اسم الصحيفة يشير إلى صنوع شخصيًا، فقد كان يعاني قصر نظر ويرتدي نظارة ذات عدسات سميكة زرقاء، وفي يوم بينما كان مشغول الذهن يبحث عن اسم لصحيفته، نادى عليه أحد الفلاحين قائلًا يا "أبا نظارة زرقا"[1]، فأعجبته العبارة وقرر أن يتخذها اسمًا لصحيفته، وتشير كثير من المراجع إلى صنوع كما أشار هو إلى نفسه بـ "أبي نظارة".

ولد صنوع وترعرع في مصر لأبوين* يهوديين، ووفقًا لمذكراته فقد وهبته أمه للإسلام فنشأ مسلمًا** وهو يتقن العديد من اللغات مثل الإيطالية والفرنسية والإنجليزية والأسبانية والألمانية والعربية والتركية والروسية، وله العديد من التجارب المسرحية الساخرة، وكان يرى نفسه "مؤسس التياترات العربية في الديار المصرية[2]"، ويعتبره عدد من المؤرخين زعيمًا للمسرح وأحد رواده بمصر.

عاش صنوع بقية حياته في باريس بعد أن تم مصادرة صحيفته "أبو نظارة زرقاء"، واتجهت أغلب المراجع إلى أن صنوع قد تم نفيه من قبل الخديوي إسماعيل، بينما تساءلت مراجع أخرى ما إن كانت باريس منفاه الاختياري أي برغبته أم أنها كانت رغمًا عنه، فمن الجائز أن صنوع قد ترك مصر لتضرره وسعى إلى مكان يتيح له قدرًا من الحرية. استكمل

---

(١) عفاف لطفي السيد مارزوت:
Afaf Lutfi Al-Sayyid Marsot. (1971, January). The Cartoon in Egypt. Comparative Studies in Society and History. 13(1). 2-15.

* يذكر أن أبيه كان ايطالي المولد.

** وفقًا لما كتبه صنوع عن نفسه "اليهودي المسلم"، أنه كان وحيد أبويه لم يرزقا غيره من البنين، فقد مات قبله أربعة أطفال، كل طفل كان يموت بعد فترة قليلة من ولادته، وعندما حملت أمه به، نصحتها إحدى صديقاتها بأن تذهب إلى شيخ مسجد الشعراني ليحصنها هي وطفلها. وفعلًا ذهبت إليه ترجوه أن يتوسل إلى الله أن يحفظ لها جنينها، فطمأنتها الشيخ قائلًا "ان ربنا سيبارك ثمرة أحشائك وسترزقين بولد"، وأكمل بقوله.."وإن نذرته للدفاع عن الإسلام فلسوف يعيش،" وبالفعل أصغت الأم لكلام الشيخ وأطاعته ووهبت ابنها للإسلام، ...ارجع إلى كتاب إبراهيم عبده "أبو نظارة إمام الصحافة الفكاهية المصورة وزعيم المسرح في مصر" ص: ١٧-١٨.

(٢) إبراهيم عبده، "أبو نظارة: إمام الصحافة الفكاهية المصورة وزعيم المسرح في مصر، ١٨٣٩-١٩١٢"، مكتبة الآداب بدرب الجماميز، الطبعة الأولى، ١٩٥٣، ص: ٩٩.

صنوع إصدار صحيفته من باريس تحت مسميات مختلفة نتيجة لمصادرة صحفه الواحدة تلو الأخرى، وكانت تصل لقرائه عن طريق تهريبها لتوزع داخل مصر.

والحقيقة أن حياة صنوع الشخصية والمهنية عرضة للتأويلات والتفسيرات، وسبب ذلك هو افتقاد الباحثين لأدلة موثقة للأحداث التي تناولها صنوع في كتاباته إلا ما كتبه صنوع بنفسه عن نفسه. وأيضًا لم تشر إليه أغلب الشخصيات المعروفة آنذاك والتي عاصرت وكتبت عن تلك الحقبة التاريخية والأدبية التي عاش فيها صنوع! فأنت في النهاية أمام سيرة ذاتية مرجعها الوحيد صاحبها! وبالتالي، لم تجد معظم الدراسات إلا والاعتماد على أقوال صنوع التي خصها في صحفه أو نقلها عنه أصدقاؤه!

وفيما يبدو أن حياة صنوع الشخصية كانت أقرب للرسوم الكاريكاتورية التي استخدمها من ناحية المبالغة والمغالاة، فقد اتسمت الكثير من كتاباته بالمبالغة_ خاصة عندما يتحدث عن شخصه_ والتي شابها كثير من الغرور والشطحات. فأحيانًا يضع نفسه في مصاف الأولياء الصالحين زاعمًا بأن له تنبؤات قد تحققت ومنها نبؤته بخلع الخديوي إسماعيل ليكني نفسه بـ "الشيخ أبا نظارة"، وأحيانًا أخرى يضع نفسه في منزلة الزعيم البطل الوطني الذي يتنقل من مكان إلى مكان ليلقي الخطب ويحشد الحشود حوله، إلى الزعم بأنه قائد الثورة المصرية (العرابية) ومحركها[1].

أصدر صنوع ثلاث صحف بلغات أجنبية وكان على رأسها صحيفة " Le Bavard Egyptien" أي (الثرثار المصري)، التي طبعت بـ ٨ لغات ولاقت رواجًا كبيرًا. كما أصدر صحيفة هزلية باللغة الفرنسية سماها La Moustique أي (البعوضة) ثم أنشأ صحيفة أخرى باللغة الايطالية سماها L'occhialino أي (النظارة)[2].

مجمل ما أصدره صنوع من صحف بلغ ١٥ صحيفة، فمن "أبو نظارة زرقاء" إلى "رحلة أبي نظارة زرقا الولي" (صدرت في ٧ أغسطس ١٨٧٨)، وكان يوقع "بقلم جمس سانووا محرر جريدة أبي نظارة زرقه الباهية..والدة النظارات المصرية"، ثم "أبو نظارة زرقا" (صدرت في ٢١ مارس ١٨٧٩) وكان يوقع "مديرها ومحررها الاستاذ جمس سانووا المصري مؤسس التياترات العربية في الديار المصرية"، ثم "النظارات المصرية" (صدرت في ١٦ سبتمبر ١٨٧٩)، إلى "أبو صفارة" (صدرت في ٤ يونيو ١٨٨٠ ولم ينشر منها إلا ثلاثة أعداد فقط)، إلى "أبو زمارة" التي كانت صورة طبق الأصل من "أبو صفارة"، إلى

(١) إبراهيم عبده، المرجع السابق، ص: ٦٢.
(٢) إبراهيم عبده، المرجع السابق، ص: ٤٠.

"الحاوي" (صدرت في ٥ فبراير ١٨٨١) [١]، والتي كتب تعريفًا لها قائلًا: "الحاوي الكاوي اللي يطلع من البحر الداوي عجايب النكت للكسلان والغاوي ويرمي الغشاش في الجب الهاوي". ثم منذ شهر إبريل عام ١٨٨١ حتى وقف صدور صحفه لمرضه عام ١٩١٠، صدرت "أبو نظارة" (١٣ يناير ١٨٨٢)، و"أبو نظارة زرقا" (١٧ إبريل ١٨٨٢)، و"أبو نضاره" وهي أسماء ثلاثة لصحيفة واحدة، غلب عليها الاسم الأخير، الذي عاشت عليه الصحيفة أكثر من عشرين عامًا[٢]، و"الوطني المصري" مصر للمصريين (٢٩ سبتمبر ١٨٨٣)، و"أبو نظاره زرقاء" (١٩ يناير ١٨٨٤).

ويبدو أن تأثر صنوع بالمسرح كان له وقعه في تنوع أفكار الرسوم الكاريكاتورية ومضمون التعليقات المصاحبة لها والتي كان أغلبها عباره عن حوارات (كثيرًا ما تكون في شكل زجل) بين شخصين أو أكثر وكأنها تياترات كاريكاتورية. فعندما تتصفح أحد صحف صنوع تجد وكأنك أمام مشاهد لمسرحية هزلية، لعبت فيها الرسوم حينًا شخصيات حية على خشبة المسرح وفي حين آخر كلوحات تشكيلية تعمل كافتتاحية فصل أو مشهد من المسرحية. ومن أهم شخصيات صنوع "شيخ الحارة" (رمزًا للخديوي إسماعيل)، و"كريم حليم" (الأمير حليم ابن محمد علي)، و"الحدق" (هو شخصيًا)، و"أبو الغلب" (الفلاح). وكان يسخر من نوبار رئيس الوزراء فيلقبه بـ "غبار" ويسخر من مجلس النواب فيسميه "جمعية الطراطير".

وليس معروفًا بشكل مؤكد حتى الآن من هو رسام صحف أبي نظارة، فقد ظهرت الرسوم خالية من أية توقيع، كما لم ينسب صنوع إلى نفسه رسمها، ولكن كان جليًا أنها من وحي أفكاره لتماشيها بشدة مع ملامح ما يكتبه! ويعتقد المؤرخ إبراهيم عبده بأن صنوع كان له رسامًا يقوم برسم الصور والأشكال وكان له مساعد يكتب له صحيفته التي تطبع على الحجر [٣]، مع الأخذ في الاعتبار أنه قد أشيع بأن أغلب ما كتبه صنوع في صحيفته كان بخط يديه، ولم يكن خطًا جميلًا أو سهل القراءة في أحيان كثيرة.

كان صنوع ينتقد سياسات إسماعيل التي ورطت مصر في سلسلة من القروض والديون لا طائل لها بها. ظهر الخديوي في إحدى الرسوم وقد أجبر على السجود أمام ملك بيوت المال روتشيلد متوسلًا أن يمنحه قرض، في الوقت الذي يتفاوض فيه أصحاب

(١) أحمد المغازي. "الصحافة الفنية في مصر: نشأتها وتطورها من الحملة الفرنسة ١٧٩٨ إلى مصر الدستورية ١٩٢٤"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٨، ص: ٥٩-٦٠

(٢) إبراهيم عبده، "أبو نظارة: امام الصحافة الفكاهية المصورة وزعيم المسرح في مصر، ١٨٣٩-١٩١٢"، مكتبة الآداب بدرب الجماميز، الطبعة الأولى، ١٩٥٣.

(٣) إبراهيم عبده، المرجع السابق، ص: ٨٣.

المصارف مع روتشيلد لإقناعه بمنح الخديوي القرض، في إشارة إلى سياسة إسماعيل الفاشلة التي أوقعت مصر تحت عباءة بيوت المال لآل روتشيلد التي سبق وأن قدمت تمويلًا لبريطانيا لشراء أسهم قناة السويس من الحكومة المصرية عام ١٨٧٥، كما أرسلت مندوبيها للتشجيع على الاقتراض منها للقيام بمشروعات تخدم مصالحها بالدرجة الأولى.

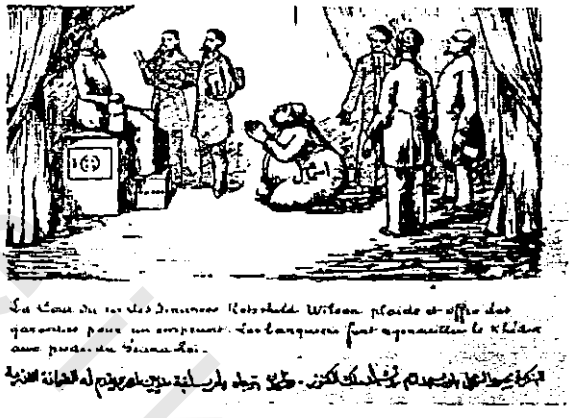

شكل ٤: الخديوي إسماعيل وملك بيوت المال روتشيلد!

"البنكرية يجبروا إسماعيل بأن يسجد امام روتشيلد ملك الكنوز – وويلسون يترجاه يأمر بسلفة ملايين لمصر ويقدم له الضمانة اللازمة"

(بول دي بينيير، ١٨٨٦[١])

وظهر إسماعيل في كاريكاتير في صحيفة "أبو نظارة" بباريس (٢٢ أكتوبر ١٨٧٨) بدينًا بشكل ملحوظ في مقارنة مع فلاح مصري نحيل جدًا، ويظهر التعليق المصاحب للكاريكتير يقول: "الفلاحين يلعنوا إسماعيل اللي ضجهم بظلمه وجوره في عدم وندم"[٢]، في إشارة إلى أنه في الوقت الذي يزداد فيه إسماعيل سمنة يزداد فيه الفلاح المصري نحافة. وظهر أيضًا إسماعيل في كاريكاتير آخر وهو يبيع صحيفة "الأهرام" في إشارة إلى أهرامات الجيزة التي يكاد لم يتبق غيرها ليبيعها ليصرف على حبه للمظاهر[٣].

(١) بول دي بينيير:
Paul de Baignières. (1886). L'Égypte satirique : album d'Abou Naddara, illustré de 48 pages de gravures. Paris: Lefebvre. p. 4..

(٢) بول دي بينيير، "ألبوم أبو نظارة: يعقوب صنوع (١٨٨٦)"، ترجمة د. حمادة إبراهيم، دراسة وتقديم وتعليق د. سيد علي إسماعيل، المركز القومي للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية، وزارة الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨، ص: ٥٦، ٧٥.

(٣) سمير صبحي، "في دهاليز الصحافة"، تقديم محمد حسنين هيكل، انترناشيونال برس، القاهرة، ١٩٨٢، ص: ٣١.

وفي كاريكاتير آخر، يظهر إسماعيل وهو يرقص طربًا وبإحدى يديه دف وعلى جانبيه راقصات .

شكل ٥: الخديوي يرقص!

قولوا على أبو نظاره : صح مسلفر يا اخواني * في مصرنا كان نواره . يعيش ويرجع بالتاني
قولوا على شيخ الحارة : صبح مشقرق يا اخواني * راح في داهيه ابو نظاره . ماعنه يرجع بالتاني.

(بول دي بينيير، ١٨٨٦[١])

ومن الجدير بالذكر أن بعض مجموعة الرسوم التي ضمها الكاتب الفرنسي Paul de Baignières[٢] في كتابه عن أعمال صنوع مختلفة عن تلك التي نشرت بالفعل في صحف صنوع من حيث الرسم وان احتفظت بالمعنى! فالكاريتير السابق على سبيل المثال قد عرضه بول من ضمن مجموعتة في كتابه، في حين نجده يختلف عن الكاريكاتير الذي نشر بالفعل في " رحلة أبي نظارة زرقا الولي" (انظر الكاريكاتير التالي) والذي تناول نفس الفكرة بتصويره مثلا الخديوي وهو يرقص!

(١) بول دي بينيير:
Paul de Baignières. (1886). L'Égypte satirique : album d'Abou Naddara, illustré de 48 pages de gravures. Paris: Lefebvre. P.2..

(٢) بول دي بينيير:
Paul de Baignières. (1886). L'Égypte satirique : album d'Abou Naddara, illustré de 48 pages de gravures. Paris: Lefebvre.

شكل ٦: الخديوي يرقص ٢!

(رحلة أبي نظارة زرقا الولي، ٨ سبتمبر ١٨٧٨[١])

وكثيرًا ما يصور إسماعيل وله جناحين حلف ظهره، لعلها إشارة لقدرته على الطيران والانفلات والهروب بعيدًا بأعماله.

شكل ٧: الخديوي إسماعيل!

"شيخ الحارة: يا موسيو ويامستر ويا سنيور ويا جندي..ما تتعبوش وتبنوا علي حيطان..لان أعطاني أجنحة الشيطان..بهم أطير..وبهم أطيَر"

(أبو نظارة زرقا، ١٦ مارس ١٨٧٩[٢])

(١) "صحف أبو نظارة"، (١٨٧٨-١٨٧٩)، "رحلة أبي نظارة زرقا الولي"، ٨ سبتمبر ١٨٧٨، العدد الخامس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤، ص: ١٧.

(١) "صحف أبو نظارة"، (١٨٧٨-١٨٧٩)، "أبو نظارة زرقا" ١٦ مارس ١٨٧٨، العدد التاسع، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤، ص: ٣٣.

سجل صنوع في العدد الأول من "رحلة أبي نظارة زرقا الولي" حوار شيق بين شيخ الحارة (الخديوي إسماعيل) وأبي نظارة وأبي الغلب (الفلاح). ظهر صنوع وهو يرتدي نظارته المميزة وقبعته كأحد أعيان فرنسا ويلوح بعصا، بينما شيخ الحارة ساجد يطلب الصفح من أبي نظارة وأن يشفق عليه من صحيفته ونقدها اللاذع، أما أبو الغلب فيقف شامخًا ينصح أبي نظارة بأن لا تأخذه شفقة ولا رحمة بشيخ الحارة (انظر الشكل التالي).

شكل ٨: شيخ الحارة وأبو نظارة وأبو الغلب!

رحلة أبي نظارة زرقا الولي من مصر القاهرة * إلى باريز الفاخره * بقلم جمس ساندرا محرر جريدة ابي نظارة زرقة ...والدة النظارات المصرية * * * * *

"شيخ الحارة – التوبه من دالنوبه أشفق يابو نظاره. على عمك شيخ الحاره. جريدتك ضربها قاسي أخاف منها على راسي. دي حطت في قلبي الرعبه. بأقوالها المخفية الصعبة. إذا رفعت عني الجريدة. أرجع لطرايقي الحميدة.

أبو نظارة – أنت عمرك ما تتوب . ولو رجموك بالطوب . ده إنت أمرك عند الجميع معلوم . بقى كيف أشفق عليك يا مشوم . والله ما أرحمك يا مطعم الناس للسمك . يا خبيث يا مسموم الريق . يا قاتل الأمير الصديق.

أبو الغلب الفلاح – ما تشفجش يابو نظارة . الشفجة في الغارده خسارة. ده جتلنا من الظلم والجور ونازل علينا زي ما ينزل السواج عالتور . جبر يلمه . ويعتقنا من ظلمه".

(رحلة أبي نظارة زرقا الولي – العدد الأول ٧ أغسطس ١٨٧٨)[1]

(١) "صحف أبو نظارة"، (١٨٧٨-١٨٧٩)، "رحلة أبي نظارة زرقا الولي"، ٧ أغسطس ١٨٧٨، العدد الأول، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤، ص: ١.

وتخبط حكم الخديوي إسماعيل من جراء أزمة الديون التي لاحقته، ورأت إنجلترا أن الطريق أصبح ممهدًا لها لاحتلال مصر بمجرد إشهار إفلاسها، إلا أن زعماء الوطنية وعلى رأسهم محمد شريف باشا قد قفلوا عليها الطريق بتقديمهم لائحة وطنية إلى الخديوي لإنقاذ مصر من ورطة الديون والتصدي للتدخل الأجنبي. كانت اللائحة تضم بندين وهما: "تسوية الديون الأجنبية على أساس أن الإيرادات تكفي المصروفات والوفاء بحقوق الأجانب...وتعديل النظام البرلماني وتخويل مجلس شورى النواب السلطات المعمول بها في البرلمانات الحديثة، وتقرير مبدأ المسؤولية الوزارية بحيث تكون الحكومة مسؤولة أمام المجلس النيابي – وليس أمام الخديو"[1]. ووافق الخديوي على اللائحة التي رآها منقذة له ولبلاده بعد أن لاح في الأفق تخلي أصحابه من الأوروبيين عنه وتزايد الأطماع الاستعمارية حول مصر. وبالفعل وفي ٧ إبريل ١٨٧٩ كلف الخديوي شريف باشا بتشكيل وزارة جديدة وفقًا للمبادئ التي تضمنتها اللائحة الوطنية[2].

لم تعجب الدول الأوروبية بسياسة الخديوي الجديدة في إدارة الأزمة وارتمائه في أحضان شعبه وخشيت من تلك الروح الوطنية التي أبدت استعدادها في تسوية أزمة الديون والوقوف خلف الخديوي ومساندته. وبالتالي خططت إنجلترا لخلع الخديوي قبل أن تنجح المساعي الوطنية في احتواء الأزمة، وأرسل وكلاء الدول الأوروبية لإسماعيل احتجاجهم على اللائحة ويهددونه بالخلع والعزل إن أصر على موقفه منها. ولم يجد إسماعيل مساندة من السلطان العثماني الذي رضخ لمطالب الدول الأوروبية. وبالفعل وفي ٢٦ يونيو ١٨٧٩ صدر الأمر السلطاني بعزل إسماعيل وتعيين ابنه محمد توفيق باشا في منصب الخديوية، ليستقل إسماعيل بخت "المحروسة" ويبحر على متنها إلى نابولي حيث منفاه بعد أن حرمه السلطان لسنوات من أن تطأ قدمه أي أرض تابعة للسلطنة. وليتجاهله أصدقاؤه بالأمس الذين كان يغدق عليهم بالسهرات والعطاءات بعد تبدل حاله من حال إلى حال[3].

لم يرحم صنوع الخديوي المخلوع في منفاه من انتقاداته اللاذعة، فقد تصدر غلاف صحيفته "النظارات المصرية" في عددها ١ ابريل ١٨٨٠ كاريكاتير وفيه إسماعيل راكعًا،

(١) جمال بدوي، "محمد علي وأولاده: بناة مصر الحديثة"، مكتبة الأسرة: مهرجان القراءة للجميع، ١٩٩٩، ص: ٢٤٩-٢٥٠.

(٢) جمال بدوي، المرجع السابق، ص: ٢٥٣-٢٥٧.

(٣) جمال بدوي، المرجع السابق، ص: ٢٥٣-٢٥٧.

وخلفه اثنتان من حريمه منتقبات ومجموعة من الحقائب، يترجى مسؤول فرنسي (الذي لا يبدي أي تعاطفًا) بالسماح له بالبقاء في باريس، ويبدو في الرسم أيضًا أبو نظارة [صنوع] هو الآخر يترجى المسؤول بالموافقة على بقاء إسماعيل.

ووعي توفيق الدرس وما حل بأبيه جيدًا وكان جليًا له بأن رضى الإنجليز هو الضمان الوحيد للاحتفاظ بعرشه، فغالى في استرضائهم اتقاءً لشرهم. وفي ظل هذه الظروف يمكننا أن نتخيل مدى معاناة المواطن المصري الذي لم يجد من الظروف المعيشية إلا أدناها وأكثرها مشقة ومذلة والذي تم التمييز ضده لصالح المستوطن الإنجليزي والشركسي والتركي وغيرهم وفي كل مجالات الحياة التي خلت من الحرية والمساواة والضمانات القانونية التي تكفل للناس حقوقهم.

وقد أصاب أيضًا الضباط الوطنيين لعنة التمييز ضدهم لصالح غير المصريين بصفة عامة والشركسيين والأتراك بصفة خاصة وعانوا من سوء معاملة رؤسائهم الذين كانوا يتعصبون لبني جنسهم ويؤثرونهم في الترقيات والتعيينات، وقد زاد الأمر سوءًا في ولاية عثمان رفقي لوزارة الحربية في عهد وزارة مصطفى رياض باشا والتي كانت بمثابة الشرارة التي أوقدت الثورة[1].

في ١٧ يناير عام ١٨٨١، قدم الأميرالاي أحمد عرابي وصاحباه الأميرالاي علي فهمي قائد الحرس الخديوي والأميرالاي عبد العال حلمي قائد طرة عريضة لرئيس الوزراء يطالبون فيها بعزل عثمان رفقي وإسناد منصبه إلى وزير وطني، وبدلا من فحص هذه الشكوى تقرر اعتقالهم وتقديمهم إلى مجلس عسكري لمحاكمتهم، وبالفعل تم اعتقالهم، فثار ضباط الجيش ونظموا كتائب سارت إلى قصر النيل حيث أطلقت سراحهم ثم واصلت طريقها إلى عابدين حيث طالبت بإقالة رفقي[2].

كان تمرد الضباط واحتشادهم يعد إنذارا للخديوي وحاشيته ومدعاة للقلق، فلم يرى الخديوى بدًا إلا النزول عن كبريائه والإذعان لمطالب الجنود، وبالفعل استقال عثمان باشا رفقي وأصدر الخديوي أمره بإسناد وزارة الحربية إلى محمود سامي باشا البارودي، أحد زعماء الثورة وعضو الحزب الوطني ووزير الأوقاف وقتها والصديق المقرب للضباط، ومن

(١) عبد الرحمن الرافعي، "الزعيم الثائر: أحمد عرابي"، دار الشعب، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٨، ص: ١٦.
(٢) حسن حافظ، المرجع السابق، ص: ٣٠.

أعلام شعراء القرن التاسع عشر في العالم العربي الذي كان يطلق عليه "رب السيف والقلم"، الذي كانت قيثارته الشعرية تعبر عن معاناة الأمة وآلامها من ظلم وقهر، نستعرض منها[١]:

وما مِصْرُ عُمْرَ الدّهْرِ إلا غَنِيمَـــــةً ... لِمَنْ حَلَّ مَغْنَاهَا وَنَهْبٌ مُقَسَّمُ
تَدَاوَلَهَـــا المُـــلاَّكُ مِنْ كُلِّ أُمَّـــةٍ ... وَنَالَ بها حظًا فصيحٌ وَ أعجمُ
فَمَا أَهْلُهَا إلاَّ عَبِيدٌ لِمَنْ سَطَـــــا ... وَلاَ رَيْعُهَا إلاَّ لِمَنْ شَاءَ مَغْنَمُ

وبالفعل سعى البارودي في وضع خطط إصلاحية لتحسين وضع الجيش، ونتيجة لمساعيه صدر مرسومان يقضيان بزيادة رواتب الضباط والجنود وببحث القوانين والنظم العسكرية المعمول بها من خلال تأليف لجنة برئاسة كل من وزير الحربية والبحرية[٢]، بما يمثل إضافة أخرى إيجابية لمساعي عرابي الوطنية.

وكان لواقعة قصر النيل أثرها الكبير في لتحول الذي حدث لثورة عرابي من كونها ثورة عسكرية إلى ثورة قومية تتكلم بلسان حال الشعب وتعبر عن معاناته، فقد أعلت من شأن عرابي فأصبح يشغل مكانة كبيرة في صدور المصريين لشجاعته في الوقوف ضد الخديوي ولمناصرته الضباط الوطنيين، مما جعله زعيمًا قوميًا اتجهت نحوه الأنظار آملة أن يحقق مآربها هي الأخرى على النطاق الشعبي ويعبر عن آلامها.

كان للحزب الوطني في ذلك الوقت دور كبير في الترويج للثورة العرابية، وقد تأسس من مجموعة من الناقمين من سياسة رياض باشا والمتذمرين من تغلغل النفوذ الأوروبي في الحكومة، والذين نشروا أول بيان سياسي لهم في ٤ نوفمبر من عام ١٨٧٩، مطالبين بتقليل الامتيازات للإنجليز وتنظيم عملية تسديد الديون والفائدة وإقامة إدارة مراقبة وطنية خاصة يكون من ضمنها ثلاثة من الأجانب[٣]. وكان معظم رجال الحزب الوطني من مفكري مصر الذين تولوا مهمة التوجيه في هذه المرحلة الحرجة والذين كان

(١) الدكتورة نفوسة زكريا سعيد، "البارودي: حياته وشعره"، قدم له وأعده للنشر الدكتور محمد مصطفى هدارة، يصدر بمناسبة توزيع جوائز المؤسسة في دورتها الثالثة، دورة محمود سامي البارودي، أكتوبر ١٩٩٢، ص: ٦٤.

(٢)عبد الرحمن الرافعي، "الزعيم الثائر: أحمد عرابي"، المرجع السابق، ص: ٤٣.

(٣) عبد الرحمن الرافعي، ، "الزعيم الثائر: أحمد عرابي"، المرجع السابق، ص: ٢٣-٢٤.

على رأسهم عرابي ومحمد عبده وعبد الله النديم وغيرهم[1]. وفي كاريكاتير في صحيفة "أبو نظارة"، تم تصوير الحزب الوطني المصري على هيئة أبو الهول، جسد أسد ورأس الزعيم أحمد عرابي.

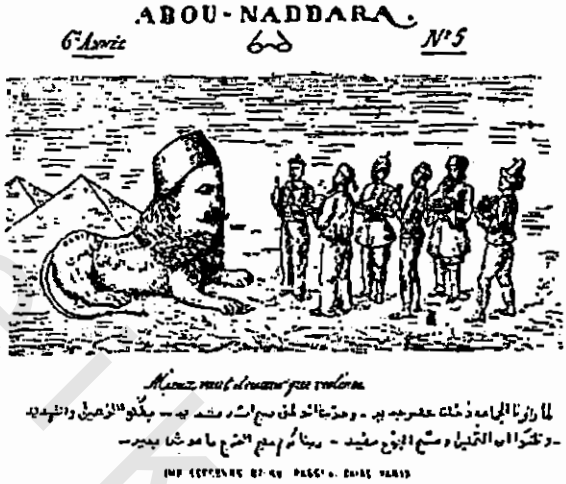

شكل ٩: الحزب الوطني!

"لما راؤنا الجماعة دخلنا عصر جديد – وحزبنا الوطني أصبح أسد شديد – بطلو الزعيق والتهديد – وظنوا أن التملين ومسح الجوخ مفيد – ربنا كريم حليم الفرج ماهو ش بعيد".

(أبو نظارة، ١٦ مارس ١٨٧٨[2])

ومن الشخصيات البارزة وقتها عبد الله النديم الذي اشتهر بكونه خطيب الثورة العرابية، وهو أول من أطلق شعار "مصر للمصريين"، وأصدر صحيفته اللاذعة "التنكيت والتبكيت" في ٦ يونيو ١٨٨١ التي ملأها بالشخصيات المصرية الفكاهية مثل "المعلم حنفي" و"لطيفة" و"الشيخ مرعي" و"الفلاح" و"العطار" و"التاجر الحمار". كما أصدر صحيفة "اللطائف" التي كان لها دور كبير في حشد الناس لمؤازرة عرابي والتي أصبحت صحيفة الثورة الأولى في السنة التي عاشتها (سبتمبر ١٨٨١ إلى موقعة التل الكبير في

(١) الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى، "الثورة العرابية"، وزارة الثقافية في الإرشاد القومي، الإدارة العامة للثقافية، القاهرة، ١٩٦١، ص: ٨٤.

(٢) "صحف أبو نظارة"، (١٨٧٨-١٨٧٩)، "أبو نظارة" ، ٤ مارس ١٨٨٢، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤، ص١٧.

١٣ سبتمبر ١٨٨٢) وأخيرًا "الأستاذ" (١٨٩٢) التي أصدرها بعد الاحتلال وكان يدعو فيها للإصلاح الاجتماعي ويتقد فيها دور جامع الأزهر في ذلك الوقت[١].

ومن الشخصيات أيضًا التي أثرت في الحياة الفكرية في مصر ما قبل الثورة جمال الدين الأفغاني والذي كان في المنفى وقت الثورة، والذي كانت لأفكاره قبل المنفى دورًا في إشعال لهيب الثورة العرابية. وبعد هزيمة الثورة، سمح للأفغاني بالسفر إلى أوروبا عام ١٨٨٣، حيث تقابل في باريس مع تلميذه الإمام محمد عبده الذي كان منفيًا هو الآخر واشتركا في إصدار وتحرير صحيفة "العروة الوثقى" التي أصبح لها صدى واسع وكانت تنادي بمقاومة الاستعمار والإصلاح، كما شارك أيضًا من باريس الأديب والصحفي أديب إسحق في تحرير صحيفة "مصر" وصحيفة "مصر الفتاة" و"مصر القاهرة"[٢].

وفي ٩ سبتمبر ١٨٨١، قاد عرابي مظاهرة عسكرية أمام سراي عابدين للضغط على الخديوي توفيق لتنفيذ مطالب وطنية والتي كان على رأسها إقالة وزارة مصطفى رياض باشا وتأليف المجلس النيابي وزيادة عدد الجيش[٣]. ولقد كللت هذه المظاهرة بالنجاح ونالت مباركة ومشاركة لوفود من الأقاليم والعلماء والأعيان وزعماء البدو الذين آزروا عرابي وساندوه. ولم يرى الخديوي بدًا إلا بتنفيذ هذه المطالب تدريجيًا فأقال رياض وعهد الوزارة إلى محمد شريف باشا في ١٤ سبتمبر ١٨٨١، وهكذا حققت الثورة انتصارًا تلو الآخر في مسار الإصلاح.

وقد كان شريف باشا أكبر مكسب للثورة، حيث عرف عنه وطنيته الشديدة ويعد مؤسس النظام الدستوري في مصر، ففي فترة وزارته للداخلية عام ١٨٦٦، تم إنشاء مجلس شورى النواب، وفي فترة رئاسته للوزارة عام ١٨٧٩، تم إقرار سلطة المجلس بمبدأ المسؤولية الوزارية أمامه، وفي فترة وزارته الثالثة ١٨٨١، تم إنشاء مجلس النواب على غرار المجالس النيابية الحديثة[٤].

---

(١) سمير صبحي، "في دهاليز الصحافة"، تقديم محمد حسنين هيكل، انترناشيونال برس، القاهرة، ١٩٨٢، ص: ٤٨.

(٢) الدكتور عبداللطيف أحمد حمزة، "الصحافة المصرية في مائة عام"، دار القلم، الجمهورية العربية المتحدة، ---١٩، ص: ٤٤.

(٣) عبد الرحمن الرافعي، "الزعيم الثائر: أحمد عرابي"، دار الشعب، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٨، ص: ٥٥.

(٤) عبد الرحمن الرافعي، "عصر إسماعيل"، دار المعارف، القاهرة، الجزء الثاني، الطبعة الرابعة، ١٩٨٧، ص:٢٣٣.

ونشر صنوع في "الحاوي" (٥ فبراير ١٨٨١) كاريكاتيرًا يصور فيه تمرد الضباط بقيادة عرابي وضغطهم على الخديوي لتلبية طلباتهم. الكاريكاتير نشر تحت عنوان: "ثورة الظابطان"، ويصحبه تعليق ساخر يلخص القصة: "أفلطون باشا قلعوا عينه وضربوه..واستون باشا نزعوا ثيابه وكركبوه..فخاف توفيق ورياض من قطع الروس..فتحاموا بالتروس..ورفدوا عثمان..وراضوا خاطر الظابطان"[(١)].

وقد سبق وأشرنا بأن صنوع قد حرر صحفه باللهجة العامية المصرية، وكان يدخل عليها بعض اللهجات الأخرى إذا تطلب الحوار الذي يؤلفه ذلك، وهي اللهجات التي كان معتادًا أن تسمع في ذلك الوقت. إلا أن عامية صنوع لم تكن تخلو في كثير من الأحيان من عبارات بذيئة ومبتذلة يعف اللسان عن ترديدها والتي يصل بعضها إلى الحد الذي لا يصلح معها إعادة النشر لتدني الألفاظ بها، والتي استخدمها صنوع في مهاجمة خصومه من أول الخديوي لكبار موظفي الدولة. ويقدم سيد علي إسماعيل، أستاذ الأدب الحديث بكلية دار العلوم بجامعة المنيا، مثالًا على هذا النوع من الألفاظ ما أورده صنوع في مشهد تخيلي (صحيفة "أبو زمارة" في ١٧ يوليو ١٨٨٠) يجمع بين الخديوي توفيق ورئيس وزرائه رياض باشا والوزير مصطفى فهمي باشا، حيث قال: "..وبعتوا ندهوا البواد مصطفى (أي مصطفى فهمي باشا) وبالأقلام ورموا له الخد والقفد وقللوا له: شابرق شابرق أحجز جريدة الصفارة ولا نحطك على خازوق. فارتعش فهمي وخرى في لباسه"[(٢)].

وكان صنوع يبدي تعاطفًا ملحوظًا في الرسوم التي ينشرها تجاه الأمير حليم، آخر أبناء محمد علي، والذي كان يرى بأحقيته في العرش من إسماعيل، وكان يتطلع لخلع إسماعيل ليحل حليم مكانه، ولكن خابت أمانيه في النهاية مع تولي توفيق العرش خلفًا لوالده. ففي إحدى الرسوم المروجة لحليم لاعتلاء عرش مصر، يظهر حيدر باشا (وزير المالية في وزارة شريف) وشريف باشا يحاولان الإطاحة برياض من أعلى قمة هرم، ليسقط رياض، وفي سقوطه يسقط معه توفيق، في الوقت الذي يقوم الشعب في الجانب الآخر من الهرم بمساعدة الأمير حليم في الصعود والوصول للقمة[(٣)]. وفي كاريكاتير آخر، الشعب

(١) "صحف أبو نظارة"، (١٨٨٢-١٨٨٤)، "الحاوي"، ٥ فبراير ١٨٨١، العدد الأول، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤، ص:١٣٠.

(٢) بول دي بينيير، "ألبوم أبو نظارة: يعقوب صنوع (١٨٨٦)"، ترجمة د. حمادة إبراهيم، دراسة وتقديم وتعليق د. سيد علي إسماعيل، المركز القومي للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية، وزارة الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨، ص: ٥١.

(٣) "صحف أبو نظارة"، (١٨٨٢-١٨٨٤)، "الحاوي"، ٥ فبراير ١٨٨١، العدد الأول، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤، ص:١٢٦.

المصري يهدي العرش لحليم بعد خلع الخديوي إسماعيل [١]. نلاحظ أن صنوع قد زج بالشعب في الرسمتين ليوحي بأن اعتلاء حليم للعرش هو مطلب شعبي.

ولعل هذه الرسوم هي ما دفعت سيد علي إسماعيل [٢] إلى الاعتقاد بأن مهاجمة صنوع للخديوي لم تكن بريئة ويدافع الوطنية والوقوف في وجه حاكم ظالم كما يزعم وإنما قد تكون بتجنيد من الأمير عبد الحليم شخصيًا لمساندته والدفاع عن أحقيته لتولي حكم مصر، الحق الذي سلب منه بفرمان عام ١٨٦٦ الذي غير نظام الوراثة في الحكم في مصر من أكبر أبناء أسرة محمد علي إلى أكبر أبناء الوالي.

وفي كاريكاتير آخر يظهر توفيق يقف منتظرًا غلامًا له "يحلب" له بقرة (مصر) ذات رأس انسان وتقف في منطقة جدباء، في الوقت الذي ينهره "أبو الحلم" (الأمير حليم) قائلًا: "ارحم على البقرة..أبوك مصها ولا خلى فيها نقطة لبن..وحش البرسيم اللي قدامها..انت ايه!..مفيش في قلبك شفقة.. ما أذرط من الوحل إلا الطين".

شكل ١٠: البقرة الحلوب!!
(أبو نظارة زرقا، ٢١ يناير ١٨٧٩ [٣])

(١) بول دي بينيير، "ألبوم أبو نظارة: يعقوب صنوع (١٨٨٦)"، ترجمة د. حمادة إبراهيم، دراسة وتقديم وتعليق د. سيد علي إسماعيل، المركز القومي للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية، وزارة الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨، ص: ١٠٠.

(٢) بول دي بينيير، المرجع السابق، ص: ٦٤.

(٣) "صحف أبو نظارة"، (١٨٨٢-١٨٨٤)، "أبو نظارة زرقا"، ٢١ يناير ١٨٧٩، العدد الرابع، السنة السادسة، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤، ص: ١٣.

وعندما اشتد النقد وعلا صوت المعارضة تم تضييق الخناق على الصحف سواء التي تنشر في مصر أو التي تأتي من الخارج، فتم مصادرة بعض الصحف وتعطيل البعض الآخر. وتم إصدار قانون المطبوعات في ٢٦ نوفمبر ١٨٨١ كأول تشريع للصحافة في مصر يحدد واجباتها وحقوقها وأيضًا يضع العقبات أمام تدفق الصحف ويعطي الحكومة نفوذًا وسيطرة على أرباب المطابع[١].

وقد أيدت أغلب الصحف الثورة العرابية خاصة في أولى مراحلها، وتحت مظلة حكومة الثورة، تم تشجيع ظهور صحف جديدة موالية للثورة والتي أطلق عليها عرابي "لسان الأمة"، مثل صحيفة "اللطائف" للنديم و"المفيد" ثم "السفير" ثم "النجاح" لحسن الشمسي و"الفسطاط" لعبد الغني المدني، في حين ضغطت حكومة الثورة على الصحف الموالية للخديوي فاضطرت صحيفة مثل "البرهان" أن تعزل الشيخ حمزة فتح الله من تحريرها حتى لا يتم تعطيلها وحتى لا تتعرض للبطش. وتوقعت الصحف الموالية للثورة أن تقوم حكومة الثورة بإلغاء قانون المطبوعات وتشكيل لجنة للنظر في قانون جديد، ولكن ما حدث هو العكس تمامًا، فقد كثرت الأوامر والإنذارات وقرارات التعطيل بحجة عدم تحري الدقة، ففيما يبدو أن حكومة الثورة وجدت نفسها مسلحة بسلاح خطير ومؤثر وطوع أمرها ورأت أن تستخدمه وتروضه لصالحها[٢].

حقق شريف الكثير من الإصلاحات في مدة زمنية وجيزة شملت الدستور وإنشاء المحاكم الأهلية وإجراء انتخابات عامة نزيهة (نوفمبر ١٨٨١) أسفرت عن مجلس شورى النواب[٣]. كان أول ما كان يتطلع إليه شريف هو إعادة النظام للجيش، فثورة عرابي بوصفها ثورة عسكرية كادت من وجهة نظره أن تخرج الجيش عن مهامه الأصلية وهي حفظ النظام، فما أن تقلد شريف رئاسة الوزارة حتى نبه زعماء الثورة من الضباط وعلى رأسهم عرابي بضرورة إبعاد الجيش عن السياسة بقوله: "في علمكم ما قاله الأقدمون: آفة الرئاسة ضعف السياسة، ولا حكومة إلا بقوة، ولا قوة إلا بانقياد الجيش انقيادًا تامًا، وامتثالهم امتثالًا مطلقًا"[٤]. وما لبث وأن نشب الخلاف بين العرابيين وشريف انتهت

(١) سمير صبحي، "في دهاليز الصحافة"، تقديم محمد حسنين هيكل، إنترناشيونال برمن، القاهرة، ١٩٨٢، ص:٥٤.

(٢) الدكتور سامي عزيز، "الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي"، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨، ص: ٥٣-٥٤.

(٣) الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى، "الثورة العرابية"، وزارة الثقافية في الإرشاد القومي، الإدارة العامة للثقافية، القاهرة، ١٩٦١. ص: ٥٨.

(٤) عبد الرحمن الرافعي، "عصر إسماعيل"، دار المعارف، القاهرة، الجزء الثاني، الطبعة الرابعة، ١٩٨٧، ص:٢٣٦.

بإسقاط وزارته في ٤ فبراير ١٨٨٢، لتكون بمثابة نقطة تحول في مسار الثورة العرابية التي بدأ يصيبها بعض التخبط والإخفاقات.

استقبلت بريطانيا وفرنسا ذاتا النفوذ الأكبر في مصر التطورات على الساحة الداخلية بعدم ارتياح ورأتا في اتساع الفجوة ومساحة الخلاف بين الخديوي ووزارة البارودي (التي حلت محل وزارة شريف) ما يشكل ثورة تهدد مصالحهما وتستدعي تدخلهما، وبالتالي أرسلتا ست بوارج إلى مياه الإسكندرية في ١٩ مايو ١٨٨٢، وقدمتا إنذارًا شديد اللهجة للحكومة المصرية يتضمن طلبات على رأسها استقالة الوزارة وخروج عرابي من القطر المصري. قوبل إنذارهما بالرفض من قبل مجلس النظار (الوزراء)، في حين وافق عليه توفيق[١].

تم انعقاد مؤتمر الآستانة في ٢٣ يونيو ١٨٨٢ بحضور ممثلي الدول الست العظمى (بريطانيا وفرنسا وروسيا وألمانيا وإيطاليا والنمسا) وفي غياب للسلطان عبد الحميد الثاني الذي رفض تدخل الدول ومناقشتها المسألة المصرية. وتم إقرار في أولى فعاليات المؤتمر إعلان "ميثاق النزاهة" (Self-Denying Protocol) ونصه: "تتعهد الحكومات الممثلة في هذا المؤتمر بأنها فيما ستتخذه من قرارات بشأن المسألة المصرية لا تريد أن تأخذ لنفسها أو لرعاياها أي امتياز إقليمي أو تجاري في مصر يكون خاصًا بها ولا يكون للدول الأخرى الحق في الحصول عليه!"[٢].

واجتمع المؤتمر مرة ثانية في ١٥ يوليو ١٨٨٢ بعد ضرب الإسكندرية بمشاركة السلطان الذي أمام إلحاح بريطانيا عزم على إرسال جنود إلى مصر لإعادة الأمور إلى نصابها، وأصدر إعلان عصيان عرابي والذي نشر في الآستانة، والذي تسبب في انخفاض الروح المعنوية لبعض أفراد الجيش والشعب الذين رأوا في هذا الإعلان خروج عرابي على الخليفة، وليس كما يدعي مدافعًا عن حقوق الخليفة[٣].

وقد انتقد صنوع سياسة إنجلترا الاستعمارية تجاه مصر في كاريكاتير نشر عام ١٨٨٤، وفيه ممثلو الدول العظمى يبحثن في الشأن المصري، في الوقت الذي يصيح فيهم اللورد جرانفيل وزير خارجية بريطانيا (يرتدي زي البحارة) قائلًا: "اسكتوا يا

(١) عادل أحمد سركيس المحامي، "الخيانة هزمت عرابي"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩، ص:١٩.

(٢) حسن حافظ، "الثورة العرابية في الميزان"، كتب قرميه، القاهرة، (--١٩)، ص: ٥٦.

(٣) حسن حافظ، المرجع السابق، ص: ١٠٥.

خواجات..الحكومة الإنكليزية هي هنا في بلادها فلا ينبغي أن تتكلموا بخصوص المسألة المصرية إلا في الأشياء التي تعجبها هي وتخلصها". يرد سفير ألمانيا قائلًا: "أي وقاحة". وسفير النمسا: "أما...". وسفير الوسيا: "مع كل ذلك". وسفير فرنسا: "طيب..لما نشوف". ليستطرد جرانفيل قائلًا: "بقى لما باقول لكم اسكتوا وانتم قاعدين تتكلموا..اخرجوا من هنا يا عالم زفت". يرد سفير ألمانيا وباقي السفراء وهم [قايمين] "ادحنا مروحين يا عم..إنما ننتظرك في برلين وهناك نسمعك وسخ أودانك. اعلم يا مستر بول ان آخر كلمة ماهيش كلمتك لا في مصر ولا في غيرها.. [1]"

غيرت فرنسا قبل ساعات قليلة من ضرب الإسكندرية موقفها وأمرت أسطولها بمغادر المدينة، أما بريطانيا فقد كانت عازمة على المضي قدمًا في التدخل المسلح حتى ومن قبل انعقاد المؤتمر ولم يبق أمامها سوى إيجاد المبرر، فأوعزت إلى قائد أسطولها أن يخلق أية وسيلة للتحرش لإثارة الحرب على مصر [2]. وبالفعل سرعان ما وقعت الحادثة المعروفة بمذبحة الإسكندرية في ١١ يونيو والتي يرى بعض المحللين أنها كانت مفتعلة، والتي بدأت باعتداء أحد المالطيين على أحد الأهليين فأسفر عن مقتله وعندما هاج رفاقه للإمساك بالقاتل، أطلق المالطيون واليونانيون القريبون من الحادث وابلًا من الرصاص على الأهالي ليسقط منهم عدد من القتلى والجرحى، والذي تسبب في إثارة نفوس الجماهير مطالبة بالقصاص [3].

وفي ١١ يوليو عام ١٨٨٢ بدأت البوارج الإنجليزية في دق حصون الإسكندرية، وآثر العرابيون الانسحاب بعد أن أضرموا النيران في المدينة ليحول من وجهة نظرهم دون نزول الإنجليز بها، على حسب اعتقاد المؤرخ عبد الرحمن الرافعي [4]! ومن الجدير بالذكر أن حريق الإسكندرية قد اختلف حوله المؤرخون، فمنهم من يرى أنه لا يزال لغزًا محيرًا لافتقار الدلائل المادية والوثائق التاريخية التي تقود للفاعل، ومنهم من يجزم بأنه من تدبير

(١) بول دي بينيير، "ألبوم أبو نظارة: يعقوب صنوع (١٨٨٦)"، ترجمة د. حمادة إبراهيم، دراسة وتقديم وتعليق د. سيد علي إسماعيل، المركز القومي للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية، وزارة الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨، ص: ١٢٨.

(٢) عبد الرحمن الرافعي، "الزعيم الثائر: أحمد عرابي"، دار الشعب، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٨، ص: ١٤١.

(٣) عبد الرحمن الرافعي، المرجع السابق، ص: ١٢٢.

(٤) عبد الرحمن الرافعي، المرجع السابق، ص: ١٥٤.

الإنجليز وقد يكون بالاتفاق مع الخديوي ليسهل عليهم دخول المدينة، وليكون ذريعة لتدخلهم العسكري.

شكل ١١: عرابي وفرنسا!

"عرابي باشا وموسيو دوليس يأكلوا عيش وملح الأخوية..أسد العرب يقول تعيش فرنسا والآخر يقول تعيش مصر وأهلها"

(أبو نظارة، ٤ أغسطس ١٨٨٢[١])

شكل ١٢: إنجلترا تقتل الأهالي!

"انظروا كيف العساكر الإنكليز بتقاتل أهالي مصر..الظابط بيسكر وعساكره بتبندق"

(أبو نظارة، ٤ أغسطس ١٨٨٢[٢])

(١) "صحف أبو نظارة"، (١٨٨٢-١٨٨٤). "أبو نظارة"، ٤ أغسطس ١٨٨٢. العدد الثالث عشر، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤، ص: ٤٩.

(٢) "صحف أبو نظارة"، المرجع السابق، ص: ٤٩.

أدرك الخديوي ما للدعاية من تأثير على تعبئة الرأي العام ضده وإثارة شعور البلاد العدائي نحوه، فقرر أن يستعين بنفس السلاح لتعبئة الرأي العام ضد عرابي، فأصدر في ٧ أغسطس منشورًا يعلن فيه عصيان عرابي وينذر الأهالي بالانفضاض من حوله. كما تلقى من الآستانة مئات النسخ من صحيفة "الجوائب"، وبها المنشور الذي أصدره السلطان في ٦ سبتمبر واصفًا عرابي فيه بالعصيان ومطالبًا مساعدة الإنجليز في القضاء على الاضطرابات[١]. وهكذا نجح توفيق في بث روح التردد والانقسام بين صفوف الثوار والجيش بين موالين له وموالين لعرابي وبين أطياف الشعب أنفسهم، مما كان أحد الأسباب التي أدت للهزيمة.

وعين عرابي بعد ضرب الإسكندرية محمود فهمي باشا رئيسا لهيئة أركان حرب الجيش المصري، الذي وضع خطة محكمة لو كانت اتبعت بإحكام لكانت نجحت في صد الإنجليز وغيرت مسار الأحداث. وقد أبلى المصريون بلاءًا حسنًا في أكثر من موقعة حربية، إلا أن سوء التقدير والخيانة ممن استطاع الإنجليز شراءهم بالأموال من أمثال الأمير الاي على يوسف خنفس، قد أصابت الثورة في مقتل في المعركة الفاصلة (١٣ من سبتمبر ١٨٨٢) بالتل الكبير[٢].

شكل ١٣: موقعة التل الكبير!

"دمعة تل الكبير..توفيق باعنا بمليون جنيهات.."بمليون جنيهات..مائة ألف اشترى حراس الاستحكامات"

(أبو نظارة، ٦ أكتوبر ١٨٨٢[٣])

(١) الدكتور سامي عزيز، "الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي"، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨، ص: ٥٨- ٥٩.

(٢)الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى، "الثورة العرابية"، وزارة الثقافة في الإرشاد القومي، الإدارة العامة للثقافة، القاهرة، ١٩٦١، ص: ١١٧-١١٨.

(٣)"صحف أبو نظارة"، (١٨٨٢-١٨٨٤)، "أبو نظارة"، ٦ أكتوبر ١٨٨٢، العدد الرابع عشر، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤، ص: ٥٣.

شكل ١٤: معاملة الإنجليز لتوفيق قبل وبعد الاحتلال!

قبل دخول الإنكليز في مصر: "قال ماليت لتوفيق: إن كنت زعلان من إخوتك فانكلترا ترميهم ورا جبل قاف"

بعد تسلط الإنكليز على مصر: "قال دوفرين لتوفيق:..بلا بكا يا واد..انكلترا قبلت بخشيش اخوتك فلازم يدخلوا مصر".

(أبو نظاره زرقا، ٤ مايو ١٨٨٣[١])

شكل ١٥: عصاة سيدنا دوفرين اللي شق بها بحر النيل!

"(قال لورد دوفرين الثعلب الى شريف باشا المطوس) بقى فهمت يا حبيبي شريف لازم انك تامر بتبطيل الكرباج اللي صبح اسمه عار وعوضًا عنه ارجوك تقبل مني العصاية دي. (قال شريف) فهمت يا حبة عيني يا لورد دوفرين وبحياة شرفي لا أخالف كلامك..يا أعظم رجال السياسة..بقى ما نغيرش شي بالقطر المصري..نبطل الكرباج ونستعمل العصاية"

(أبو نظاره زرقا، ٢٦ مايو ١٨٨٣[٢])

(١) صحف أبو نظارة، (١٨٨٢-١٨٨٤)، "أبو نظاره زرقا". ٤ مايو ١٨٨٢، العدد السادس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤، ص: ٨٥.

(٢) صحف أبو نظارة (١٨٨٢-١٨٨٤). أبو نظاره زرقا. ٢٦ مايو ١٨٨٢. العدد السابع، السنة السابعة. دار صادر، بيروت، ١٩٧٤، ص: ٨٩.

يرى المؤرخ عبد الرحمن الرافعي أن أحد أهم أسباب الهزيمة تكمن في العرابيين أنفسهم، فقد كانت تنقصهم "الحصانة في الرأي وبعد النظر السياسي"، وكانوا أغلب الظن يعتمدون في تحديد حقيقة الموقف السياسي على أخبار يتلقونها من أوربيين قد تكون ملفقة، فلم يكن لهم قلم أخبار في مصر أو في الخارج يطلعهم على حقيقة الموقف وتطوراته[١]. كما أن عرابي قد اعتلاه الغرور فعصب عينيه عن تقدير الموقف حق تقديره والإنصات لآراء الآخرين، فحينما تحفزت بريطانيا لضرب الإسكندرية لوح له البعض بخطورة الحرب وعواقبها، فكان يرد ويقول: "أنا أقوى من دولة الإنجليز ودولة فرنسا"، وقال: "إن الطوابي والعساكر المصرية لا تقاوم الإنجليز فقط، بل جميع الدول مدة ثلاث سنين..بحيث لا يمكن لأحد الدخول إلى مصر"[٢]. أضف إلى ذلك أن عرابي لم يكن على قدر كبير من الكفاءة الحربية، فهو لم يتدرب على ضروب القتال ولم يخض حروبًا من قبل، بما فيها حروب الثورة نفسها![٣]

تم اعتقال زعماء الثورة العرابية السبعة (عرابي والبارودي وفهمي ويعقوب سامي باشا وعبد العال حلمي باشا وعلي فهمي باشا وطلبة باشا عصمت) ونفيهم إلى جزيرة "سيلان" (سيريلانكا حاليًا)، ليسدل الستار على نهاية قصة درامية بدأت بكفاح شعب نادى بالحرية والعدالة وانتهت بوقوعه تحت الاحتلال.

بدأ الاحتلال حياته في مصر بتعطيل وإلغاء أكثر الصحف التي تعتمد في بعض مواردها على أموال القنصلية الفرنسية أو الأموال التركية. وكان قرار التعطيل لا يحتوي سوى العبارة التقليدية بأن ما نشر "مما يشوش الأفكار ويخدش الأذهان"[٤]. واختلفت ردود فعل الصحف على هزيمة ثورة عرابي وتباين موقفها من عرابي نفسه بعد الهزيمة، فوصفته صحيفة "الأهرام" بـ "العاصي" وانتقدت بحدة الخديوي وعرابي ورفاقه، ليصدر أمر بتعطيلها شهرًا في ١٩ أغسطس ١٨٨٤ جزاءً على حدتها[٥]. في حين استقبلت بعض الصحف (مثل صحيفة "الوطن") الاحتلال البريطاني والحكومة الجديدة أحسن استقبال

(١) عبد الرحمن الرافعي، "الزعيم الثائر: أحمد عرابي"، دار الشعب، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٨، ص: ١٣٦.

(٢) عبد الرحمن الرافعي، المرجع السابق، ص: ٢١٣.

(٣) عبد الرحمن الرافعي، المرجع السابق، ص: ٢١٤.

(٤) الدكتور سامي عزيز، "الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي"، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨، ص: ٨١.

(٥) سمير صبحي، "في دهاليز الصحافة"، تقديم محمد حسنين هيكل، انترناشيونال بر س، القاهرة، ١٩٨٢، ص: ٥٥.

وعملت على تشويه صورة عرابي والتجني عليه. واعتمد الاحتلال على صحيفة "المقطم" فأمدها بالمال والأخبار وبكافة المواد الصحفية التي تكفل لها الرواج[١].

استمر صنوع في نقد سياسة الخديوي توفيق والاحتلال الإنجليزي في صحفه التي يصدرها من باريس، فنشر كاريكاتير مسلسل (كومكس) من أربعة مشاهد يصور فيها علاقة توفيق بالفلاحين. في المشهد الأول يظهر الفلاحون وهم يشتغلون "بالسخرة في الجسور بأمر [من] نوبار وبوغوص ومونكريف"، وفي المشهد الثاني، يظهر كل من نوبار وبوغوص ومونكريف ورأسهم على هيئة قطط يتوعدن الفلاحين إذا لم يحسنوا استقبال الخديوي، فيقول نوبار "القط السنحوط": "يا فلاحين يا جديان إذا قلتم إنكم بتخدموا بدون أجرة وبدون طعام..وإذا ما زعقتم رينا يطول عمر أفندينا أموتكم". أما "بغوص القط" فيقول: "وراس بابا يا فلاحين إن إذا ما قلتم لأفندينا إن الأتي عظام لجلب المياه وإذا ما قلتم يعيش توفيق أموتكم". ويقول مونكريف "القط": "يا لخنزير فلاحين إذا ما تقولوا لأفندينا إن ما فيش مهندس في الدنيا مثلي انأ اقطع عنكم المياه وتموتوا من العطش". وفي المشهد الثالث يصل الخديوي توفيق راكبًا عربه مكشوفة يجرها خيل ء"الفلاحين يزعقوا يعيش توفيق". هنا يحدث توفيق نفسه قائلًا: "شيء غريب كلما يزيد ظلمي في الفلاحين كلما يزيد [حبهم] في". وفي المشهد الأخير، يقول الفلاحون أول "مايشوفوا توفيق مسلفر الله يلعنك أنت وأبوك ويخلصنا منكم ويشملنا بحلمه عن قريب".

شكل ١٦: الفلاحون وتوفيق!

(أبو نظاره، ٢٦ سبتمبر ١٨٨٥)

(٥)الدكتور عبد اللطيف أحمد حمزة، "الصحافة المصرية في مائة عام"، دار القلم، الجمهورية العربية المتحدة، ---١٩، ص: ٧١.

كما انتقد صنوع سياسة إنجلترا الاستعمارية في السودان، ففي كاريكاتير نشر في "أبو نظارة" عام ١٨٨٥، تظهر إنجلترا على هيئة امرأة عجوز تحمل على ظهرها سلة فيها شوك وتبدو منحنية الظهر وهي تجمع مزيد من الشوك، في حين زعماء أوروبا وروسيا ينفجرون من الضحك سخرية منها ويقولون: "..يا امرأة يا عجوزة..ياما بتحبي الشوك..ما يكفيكيش شوك مصر حتى تدوري على شوك السودان".

شكل ١٧: سياسة إنجلترا في السودان!
(أبو نظاره، ٧ فبراير ١٨٨٥)

وفي حوار ساخر مصحوب بمشهد كاريكاتوري فيه مندوب فندق "شبرد" يأتي للخديوي توفيق بفاتورة حساب، فيصطدم توفيق فور اطلاعه على "الفاتورة"، في حين يقف عن بعد "أبو نظارة" (صنوع) وإلى جانبه فلاح مصري. يدور الحوار بينك "أنت" القارئ و"أبو نظارة" لشرح قصة الرسم (انظر الشكل التالي). "الله يا سيدي على دا الرسم العجيب..ده مين ده اللي قاعد؟ ده توفيق ابو وش كئيب ∴ والمستر ده اللي واقف قدامه مين؟ ده يا حفيظ رؤيته رؤية شياطين ∴ ده المستر بول صاحب لوكانده شبت الخماره الإنكليزية. اللي نزل فيها الباشا اللي جاب لتوفيق نيشان الدولة العلية ∴ فالخمرجي بيقدم لتوفيق الحساب. لان الضيف مابدفعشي لما ينعزم عند الأصحاب ∴ أما الواد الأهبل طلع زي أبوه إسماعيل.... طيب والاتنين اللي واقفين من بعيد دول مين؟ ده أبو نظاره وده شيخ من مشايخ الفلاحين ∴ لما نسمع كلامهم ∴∴∴∴∴ توفيق لصاحب الخمارة بيقول ∴∴∴∴∴ ده مش حساب ده نهب جوديم يا بلاد الفول ∴ وصاحب الخمارة يرد عليه وقال ∴ الباشا التركي احتقر طبيخنا الإنكليزي وما أكل إلا طبيخ فرنساوي عال ∴ فالطبيخ الفرنساوي ثمنه الطاق طاقين يا عزيز. آدي جزا اللي يحتقر طعام ملكة الإنكليز. صحون الفراخ الشاسور والمارنجو ولحم الشاتوبريان اللي الباشا التركي هو وتباعه أكلوها. وقزائز الشامبانيا وكاسات العنبري اللي شربوها ∴ تساوي يا أفندينا فلوس كتير. والخديوي غني ماهوش فقير ∴ بقى أأمر بدفع الحساب وإلا نعمل عليه بورتستو في

الحقانية. وتلزمك بدفعه حكومتك الإنكليزية ∴ ∴ ∴ فقال أبو نظارة اي هتيكه وأي عار كيف يا توفيق تشتكي من حساب خمار ∴ اكتر مما تشكيت يا ولد من احتقار رعائتك وخراب البلاد ∴ يحقلك أنت تشكي يا فلاح يـ أبوشادوف. لان من جيبك بيطلع كل المصروف ∴ ∴ ربنا كريم حليم ∴ ∴"

شكل ١٨: توفيق وفاتورة الحساب!
(أبو نظاره، ٢٦ ديسمبر ١٨٨٥)

نجد في هذا الحوار المصاحب للكاريكاتير عدد من المفارقات الذكية التي لها دلالات مهمة، فقد أوجزت الحالة التي تمر بها مصر وقتها وبشكل مسرحي، ولخصت طبيعة العلاقة بين السلطة والدول العظمى خاصة بريطانيا وفرنسا. فاختيار الضيف أن يأكل بالمطبخ الفرنسي وهو داخل الفندق الإنجليزي مثل إهانة لإنجلترا فوجب أن يكون أسعار الطعام بالمطبخ الفرنسي بضعف الثمن لمثيله داخل المطبخ الإنجليزي، كمغزى سياسي حول العراقيل التي تضعها إنجلترا في طريق من يريد التعامل مع فرنسا.

وهناك أيضًا دلالة مهمة، فعندما أراد توفيق إكرام محمد باشا الذي بعثه السلطان ليسلمه نيشان أو وسام الامتياز الكبير، تسبب الضيف في خراب بيت توفيق لشدة إسرافه، مما يحمل مغزى سياسيًا آخرًا لطبيعة العلاقة بين السلطان والخديوي، وهو أن ما يعطيه السلطان باليد اليمنى يأخذ أضعافه باليسرى.

المفارقة الثالثة والتي لا يمكن تجاهلها وهي أن هذا المشهد المسرحي الكاريكاتوري تم على مسمع ومرأى من الفلاح المصري الذي يصاحبه صنوع، وهنا تكمن حجم المفارقة بين الخديوي الذي لا يستيطع دفع فاتورة حسبه فما بال الفلاح الفقير، ليحرضه صنوع بأن الأموال التي "يبعزقها" توفيق على ضيوفه إنما هي من أمواله ومن أموال باقي أفراد الشعب.

ثورة ١٩١٩ وقضية الاستقلال:

شهدت الفترة ما قبل ثورة ١٩١٩ حراكًا سياسيًا خطيرًا خاصة خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) وكشفت النقاب عن خطورة ومساوئ الاحتلال الإنجليزي ومدى استغلاله للثروات الطبيعية ومدى إذلاله وقهره للمصريين، ونواياه الاستعمارية والتي من أهمها إعلان وعد بلفور عام ١٩١٧ وظهور تحركات واسعة النطاق لجمعيات صهيونية مدعمة من الاحتلال. كل ذلك دفع الحركات الوطنية إلى سرعة العمل على الحصول على الاستقلال والتخلص من الاحتلال.

عندما بدأت الحرب العالمية، تم إصدار عدد من القوانين الاستثنائية ومنها قانون منع التجمهر في ١٨ أكتوبر ١٩١٤، ثم إعلان الأحكام العرفية وفرض الرقابة على الصحف في ٢ نوفمبر من نفس العام، ثم أعقبه إعلان بريطانيا الحماية على مصر في ١٨ ديسمبر وخلع الخديو عباس الثاني وتولية السلطان حسين كامل عرش مصر في ١٩ ديسمبر، والذي كان له وقع مرير على الشعب المصري.

في حين رحبت الصحف الموالية مثل "المقطم" و "الجريدة" خبر الحماية، وكان محتم على الصحف نشر قرار الحماية البريطانية دون مناقشة أو اعتراض، فآثر أمين الرافعي رئيس تحرير صحيفة "الشعب" بالاتفاق مع الكاتب عبد الرحمن الرافعي إيقافها عن الصدور ابتداء من ٢٨ نوفمبر ١٩١٤، تبرمًا من شدة الرقابة، ورفض إغراء وتهديد رجال السلطة لإثنائه عن قراره. ويعتبر احتجاب صحيفة "الشعب" أول احتجاج مصري على الحماية تمثلت في التضحية الكبيرة المترتبة على إيقاف الصحيفة، والتي بما لا شك فيه قد رفعت من المكانة الوطنية للصحيفة ورئيس تحريرها[١]. كما أنه نتيجة لشدة الرقابة على الصحافة، احتجبت بعض الصحف نهائيًا ومن بينها صحيفتان حزبيتان كبيرتان: صحيفة "الجريدة" (لسان حال "الحزب الوطني") توقفت ابتداء من أول يوليو ١٩١٥ وصحيفة "المؤيد" (لسان حزب "الإصلاح على المبادئ الدستورية") في مايو ١٩١٥ تعطيلًا مؤقتًا ثم نهائيًا في ٨ ديسمبر ١٩١٥[٢]، كما احتجبت صحفًا لأسابيع وقلصت موادها الاخبارية وقللت من عدد صفحاتها لأزمة الورق وارتفاع سعره خلال الحرب وصعوبة استيراده مثل صحيفة "الأهالي"[٣].

(١) رمزي ميخائيل، "الصحافة المصرية والحركة الوطنية ١٨٨٢-١٩٢٢"، مصر النهضة: مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦، ص: ١٣٠.
(٢) رمزي ميخائيل، المرجع السابق، ص: ١٣٩.
(٣) رمزي ميخائيل، المرجع السابق، ص: ١٤٣.

ومن المثير للدهشة أن في أوج أزمة الرقابة على الصحف، صدرت صحفًا جديدةً ومنها صحيفة "اللطائف المصورة" (صدرت عام ١٩١٥) لصاحبها اسكندر مكاريوس، التي تنوعت موادها ما بين سياسية وأدبية وتاريخية وفكاهية، وقد كانت كثيرًا ما تعيد نشر رسومًا كاريكاتورية عالمية تساند الحلفاء في حربهم ضد دول المحور. فقد نشرت في عددها في ١٥ يناير ١٩١٧ كاريكاتير يصور النسر الألماني (إشارة إلى ألمانيا) وهو ينازع البقاء بعد أن سالت دماؤه فوق أوروبا. وفي ١٢ فبراير نشرت كاريكاتير آخر يصور ديفيد لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا وقتها، الذي توعد بضرب الأعداء الضربة القاضية، على هيئة مدرعة تسير باندفاع في اتجاه مواقع الأعداء لإلحاق الهزيمة بهم وإجبارهم على الاستسلام.

شكل ١٩: لويد جورج في مواجهة الأعداء!
(اللطائف المصورة، ٢، فبراير ١٩١٧)

وكثيرًا ما كانت "اللطائف المصورة" في أولى أعدادها تشير إلى الرسوم الكاريكاتورية "بالرسوم" أو "الصور الهزلية"، كما أشارت إلى رسامها بـ "الرسام الهزلي الأستاذ كيم". كما ظهر على صفحاتها الرسام إيهاب خلوصي الذي رسم في هذه الفترة رسومًا كاريكاتورية وقصص قصيرة مصورة من نوعية الكومكس أغلبها ذات طابع اجتماعي. ففي ٢ إبريل من عام ١٩١٧، رسم كومكس من ستة مشاهد يصور نتيجة اللامبالاة وعدم تحمل المسؤولية مجسدة في فتى قد توفي والده فأول ما فعله هو حرق كتبه الدراسية، ثم بدد ثروته التي ورثها عن أبيه في الشرب وارتياد صالات القمار لينتهي به الحال إلى الشحاذة يمد يده للناس طالبًا

"حسنه لله". ومن الجدير بالذكر أن معظم الكومكس التي نشرت لإيهاب كانت باللغة العامية ولكنها كانت تقرأ من الشمال لليمين وليس العكس وأحيانًا يصاحبها شرح موسع لفكرة أو قصة الكومكس! ولعل شدة الرقابة على الصحف في تلك الفترة هي السبب في اتجاه اللطائف إلى هذه النوعية من الكاريكاتير الاجتماعي لتكون بمنأى عن مقص الرقابة واضطهادها من قبل سلطات الاحتلال!

ومع انتهاء الحرب العالمية الأولى، عادت الحركات الوطنية للظهور مرة أخرى وهي أكثر حراكًا وإصرارًا على القضاء على الاحتلال، وقد زاد من تأججها تأثرها في ذلك الوقت بخطب الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون ومبادئه الأربعة عشر الذي كان يؤمن بحق كل أمة في تقرير مصيرها. وفي ١٣ نوفمبر ١٩١٨، تم تشكيل وفد بزعامة سعد زغلول لمطالبة المعتمد البريطاني بالسماح له بالسفر لعرض مطالبه من أجل الاستقلال في مؤتمر فرساي للسلام بباريس[١].

انزعج الإنجليز بشدة من نشاط الحركات الوطنية وتفاعل الشعب معها خاصة بعد أن ذاع صيت سعد زغلول وتحوله في نظر العامة إلى زعيم وطني، فتم القبض عليه وعلى ثلاثة من رفاقه (إسماعيل صدقي باشا ومحمد محمود باشا وحمد الباسل باشا) في ٨ مارس من عام ١٩١٩، ونفيهم إلى مالطة. كانت هذه بمثابة الفتيل الذي أشعل ثورة مارس-إبريل ١٩١٩، والتي شارك فيها كل فئات الشعب المصري في كل مدينة وقرية ونجع وكفر ومن كل الأعمار والانتماءات والتيارات والأطياف والطبقات من باشاوات لفلاحين لموظفين لعمال في مظاهرات حاشدة ضد ترحيل سعد. كما خرجت النساء لأول مرة في تاريخ مصر مشاركة في المظاهرات يهتفن ضد نفي الزعماء وضد الاحتلال. كما اضرب التجار عن العمل وقطعت خطوط السكك الحديد وخطوط التلجراف، وتم تدمير بعض المنشئات الأجنبية.

كان من أهم مظاهر الثورة هو الإخاء بين الهلال والصليب، فلم يعرف في حركتي عرابي ومصطفى كامل أن أحدًا من الأقباط في زعامتها، ولكن في ثورة ١٩١٩ كان كبار الأقباط من زعماء الثورة، كان هذا تطور عميق ودفعة للأمام وترسيخ لمفهوم القومية المصرية، فلم يعد الجهاد الوطني مقصورًا على المسلمين فقط، ولكنه أصبح جهاد جميع

---

(١) سلمى بوتمان:
Selma Botman. (1991). Egypt from independence to revolution, 1919 – 1952. New York: Syracuse University Press.

المصريين مهما كانت عقائدهم كشعب له جنسيته وتقاليده وتاريخه. وقد دهش المحتلون لهذا التطور الكبير وأكثر ما أغاظهم هذا الاتحاد بين المسلمين والأقباط، وركزوا كل جهدهم في تشويه الثورة وتشويه زعمائها[1].

كما ظهرت أثناء الثورة ما يعرف بـ "الشرطة الوطنية"، حيث نظم الأهالي جماعة منهم لحفظ النظام في أثناء سير المظاهرات وفي الاجتماعات التي كانت تعقد لسماع الخطب الحماسية وحمايتهم ممن يندس بينهم من الغوغاء، وكان لأفرادها شارات خاصة تميزهم عن سواهم، عبارة عن شريط من القماش الأحمر يحيط بالذراع الأيسر مكتوب عليه بالقماش الأبيض "بوليس وطني"، إلا أنه ما لبثت أن أصدرت السلطة العسكرية أمرًا في ١٨ إبريل عام ١٩١٩ بمنع هذه الجماعة الأهلية، وتوعدت من ينتمي إليها بالاعتقال والمحاكمة[2].

يرى المؤرخ عبد الرحمن الرافعي أن اعتقال سعد زغلول ورفقائه كان بمثابة الشرارة التي أشعلت الثورة ولكن لم يكن السبب الرئيسي أو الوحيد لقيامها، وأكبر دليل على ذلك أنه عندما اعتقل سعد مرة ثانية في ديسمبر عام ١٩٢١ بعد أن علت وعظمت منزلته لدى الشعب لم تقم في البلاد أي ثورة للإفراج عنه. فثورة ١٩١٩ ترجع إلى تذمر الشعب واستيائه من الاحتلال الأجنبي، الذي نقض وعوده بالجلاء التام ودأب على السعي لفصل السودان عن مصر وتقطيع أوصال الدولة المصرية وإلغاء الجيش وتجريد البلاد من أي قوة حربية وإسناد كبرى المناصب للبريطانيين في مختلف المصالح والدواوين وسوء معاملة واحتقار المصريين[3].

كما كان للحزب الوطني دورًا كبيرًا في الكفاح ضد الاحتلال منذ عام ١٨٩٠ وحتى ١٩١٩ (على يد مؤسسه مصطفى كامل ومن ثم محمد فريد وأنصارهما)، والذي كان بمثابة التمهيد للثورة عندما عمل على إحياء الصحوة والمبادئ الوطنية الصادقة. كما كان من أسباب قيام الثورة، تأليف الوفد المصري في نوفمبر ١٩١٨، وانضمام حسين رشدي باشا رئيس الوزارة وقتها إلى الحركة الشعبية. وهنا يتضح كيف اختلفت ثورة ١٩١٩ عن الثورة العرابية، فالثورة العرابية كان من أسباب اشتعالها الاستياء الشديد من الوزارة القائمة آنذاك (وزارة رياض باشا) ليكون أولى مطالبها إسقاطها، أما ثورة ١٩١٩ فقد لقيت تأييدًا كاملًا

(١) محمد زكي عبد القادر، "محنة الدستور ١٩٢٣-١٩٥٣"، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٣، ص: ٤١.

(٢) عبد الرحمن الرافعي، ثورة ١٩١٩: تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١"، دار المعارف، الطبعة الرابعة، القاهرة، ١٩٨٧، ص: ٢٣٥.

(٣) عبد الرحمن الرافعي، المرجع السابق، ص: ٧٨.

من وزارة رشدي، التي بمساندتها عبدت لها الطريق وعملت كورقة ضغط على الحكومة البريطانية للإفراج عن سعد ورفاقه والسماح لهم بتمثيل قضية مصر في مؤتمر الصلح بباريس (١).

وثارت ثائرة بريطانيا وهي تتابع تحول سعد زغلول إلى زعيم وطني، فأصدرت قرارًا بتحريم ذكر اسمه ومنع إذاعة أو إنشاد أي أغاني فيها اسمه، وقبل المصريون التحدي فأطلقوا اسمه على نوع من أنواع البلح، "بلح زغلول"، ليصبح إلى يومنا هذا من أشهر الأنواع وأطيبها طعمًا، كما قدم الموسيقار الشعبي سيد درويش أغنية بعنوان "يا بلح زغلول يا حلوة يا بلح"، التي انتشرت انتشار النار في الهشيم لتصبح من أكثر الأغاني الشعبية رواجًا في تلك الفترة، ليتكرر اسم سعد في كل ربوع البلاد وعلى مرأى ومسمع من الإنجليز الذين لم يجدوا لمنع ذكر اسمه سبيلا، ومطلع الأغنية يقول:

يا بلح زغلول يا حلوة يا بلح** يا بلح زغلول**
يا زرع بلدي عليك ياوعدي
يابخت سعدي زغلول يا بلح
يا بلح زغلول يا حلوة يا بلح** يا بلح زغلول**
عليك أنادى في كل وادى
قصدي ومرادي زغلول يا بلح
يا بلح زغلول يا حلوة يا بلح** يا بلح زغلول**

كما قدم سيد درويش في ذلك الوقت رائعته " قوم يا مصري مصر دايمًا بتناديك" (كلمات بديع خيري) لتأجيج المشاعر الثورية ضد الاحتلال وضد نفي سعد والتي مازالت تنشد حتى يومنا هذا في المناسبات التي تحتاج إلى رفع روح النضال والعزيمة والإصرار لتحقيق أهداف وطنية.

لم تستطع بريطانيا الوقوف أمام هذه المظاهرات الشعبية ولم تستطع السيطرة عليها، وبالتالي لم يكن أمامها إلا الخضوع للمطالبة الشعبية بالإفراج عن سعد ورفاقه في ٧ إبريل. والسماح لهم بالذهاب إلى باريس لحضور مؤتمر السلام، فيما اعتبره المصريون نصرًا سياسيًا كبيرًا لهم وإنها فقط البداية لقناعتهم أن ثورتهم مازالت مستمرة.

(١) عبد الرحمن الرافعي، المرجع السابق، ص: ٨٥-٨٦.

اعتمدت الثورة في أول قيامها على المنشورات والصحافة السرية، فقد كان على سبيل المثال للطلبة جريدة سرية باسم "المصري الحر" ولهم مطبعة سرية خاصة، وكان الناس يتلقفون بلهف هذه النشرات[1]. ولم يكن للوفد المصري الذي يمثل مصر وقتها صحف خاصة به، لكن كان هناك من يدافع عنه وعن القضية الوطنية مثل أمين الرافعي في صحيفة "الأخبار" وعبد القادر حمزة في "الأهالي"[2]. وخلال شهري يوليو وأغسطس عام ١٩١٩، انضمت ثلاثة صحف إلى حزب الوفد وهي "مصر" و"وادي النيل" و"النظام"، وصارت أكثر الصحف المؤيدة للوفد دون أي يمتلك أي صحيفة منها[3].

صدم الشعب صدمة شديدة وأصيب بخيبة الأمل عندما اعترف الرئيس ويلسون بالحماية البريطانية على مصر في شهر إبريل من عام ١٩١٩، مخالفًا بذلك "مبادئه" التي تكلم عنها والتي كانت تشكل آمالهم. وصدمت الحركة الوطنية صدمة أخرى عندما أعلنت شروط الصلح التي قررها الحلفاء، حيث جاءت النصوص الخاصة بمصر مؤيدة للحماية[4].

وفي ٢٢ سبتمبر ١٩١٩، تم تأليف لجنة برئاسة اللورد ألفريد ملنر وزير المستعمرات للتحقيق في أسباب الثورة وإيفاد حلول لتهدئة الوضع، والتي قوبل نبأ تأليفها في مصر بالسخط والاحتجاج واندلعت مزيد من المظاهرات الرافضة للمساومة على الاستقلال، وما أن وصلت اللجنة مصر في ديسمبر، حتى انقلبت العاصمة إلى حالة من الهياج والاضطرابات والإضرابات التي بدأها الطلبة وأعقبهم الموظفون والمحامون.

وعندما رأت اللجنة أن مقاطعة الشعب لها عامة، عادت إلى لندن تجر أذيال الخيبة والتي لم تجد بدًا من النزول للرغبة الشعبية والاتصال بسعد زغلول (الذي كان في باريس) ووفده ودعوته للتفاوض. لبى سعد ووفده لدعوة وأسفرت المفاوضات عن مشروع معاهدة بين مصر وإنجلترا قدمه اللورد ملنر إلى الوفد، واتفق الوفد على تأجيل المفاوضات حتى تتم استشارة الأمة في المشروع[5]. وبعد مضى ما يقرب من شهر من المباحثات في مشروع المعاهدة، غادر أعضاء الوفد إلى باريس مرة أخرى في أوائل أكتوبر عام ١٩٢٠

(١) عبد الرحمن الرافعي، المرجع السابق، ص: ٣٩٤.
(٢) الدكتور عبد اللطيف احمد حمزة، "الصحافة المصرية في مائة عام"، دار القلم، الجمهورية العربية المتحدة، --١٩، ص: ٦٦، ١١٣.
(٣) رمزي ميخائيل، "الصحافة المصرية والحركة الوطنية ١٨٨٢-١٩٢٢"، المرجع السابق، ص: ١٥٤.
(٤) عبد الرحمن الرافعي، "ثورة ١٩١٩: تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١"، المرجع السابق، ص: ٣٣٢-٣٣٣.
(٥) عبد الرحمن الرافعي، المرجع السابق، ص: ٤٧٩.

وقدموا التحفظات التي أبدتها الأمة على المشروع، إلا أن ملنر رفض بحث هذه التحفظات متمسكًا برأيه، وهو إما قبول المشروع كله أو رفضه كله، في حين تمسك الوفد برفضه الدخول في مفاوضات رسمية قبل إقرار هذه التحفظات[١].

أخذ بعض المؤرخين ومنهم عصام محمد سليمان على سعد أنه قبل التفاوض مع الإنجليز مما أضر بالقضية المصرية، لأنه بقبوله جعلها موضع مساومة، فهو بموافقته على التفاوض قد أعطى للإنجليز حقًا ليس لهم، وكأنه اعتراف ضمني بحقهم في احتلال مصر. كما أدى فشل المفاوضات إلى إعطاء الإنجليز الفرصة في تثبيت أقدامهم والتحايل على الجلاء الكامل حتى عام ١٩٥٦[٢].

وتزامنًا مع المظاهرات الشعبية لثورة ١٩١٩، ظهر عدد قليل من الرسوم الكاريكاتورية تؤكد على أن كل طوائف الشعب بكل الأعمار، رجالًا ونساءً، شيوخًا وأطفالًا، مؤيدة لسعد ومطالبة بالاستقلال التام. ففي الكاريكاتير التالي الذي نشر في اللطائف المصورة، اللورد ملنر وهو ينظر من شرفته بفندق سميراميس إلى الجموع الغاضبة الرافضة للتفاوض معه، فكل طوائف الشعب التي تمر به لا تنطق إلا بعبارة واحدة: "الاستقلال التام".

شكل ٢٠: الاستقلال التام!

"ملنر في لوكندة سميراميس: ماذا؟ أين؟...لماذا؟ متى؟"

"جميع طوائف الشعب: الاستقلال التام"

(اللطائف المصورة، ١٩١٩)

(١) عبد الرحمن الرافعي، المرجع السباق، ص: ٥٤٢.
(٢) عصام محمد سليمان، " أزمة الحكم في مصر (١٩١٩-١٩٥٢)"، مطبعة الفكرة شارع منشأة الفاضل، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٥٤، ص: ٣٦.

وشهد عام ١٩٢٠ احتجاب جماعي للصحف المصرية لمدة ثلاثة أيام احتجاجًا على قرار السلطة العسكرية البريطانية بإعادة الرقابة على الصحف، وقد نشرت صحيفة "الوقائع المصرية" إعلان اللورد اللنبي بإعادة الرقابة وكان نصه: "نظرًا لما تنشره الصحف باستمرار من المقالات التي تخل بسلطة الحكومة، والتي من شأنها الإغراء على إحداث اضطرابات وإتيان أعمال مناقضة للنظام والأمن العام، ستكون المراقبة على الصحف سابقة للنشر ابتداء من ٦ مارس سنة ١٩٢٠"[(١)].

وظهرت على الساحة صحيفة "الكشكول" (صدرت عام ١٩٢١) اللاذعة لصاحبها سليمان فوزي والمسلحة بالرسوم السياسية الكاريكاتورية المعادية "للوفد" فقد كانت كثيرًا ما تشن هجومًا عنيفًا ضد سعد زغلول وحزبه، وكان يرسم بها الفنان الأسباني الأصل جوان سانتس وأيضًا مدرس الفنون الجميلة محمد حسن والنحات محمود مختار. ثم ظهرت صحيفة "خيال الظل" (صدرت عام ١٩٢٤) لصاحبها أحمد حافظ عوض التي كانت تروج لسياسة سعد وترد على الهجوم العنيف الذي تشنه "الكشكول"، وكان من أهم رساميها علي رفقي التركي، لتشتعل المنافسة الشديدة بين الصحيفتين.

وفي ٢٨ فبراير ١٩٢٢، أصدرت بريطانيا تصريحًا أعلنت فيه إنهاء الحماية البريطانية على مصر وأن مصر دولة مستقلة وبالتالي مهيئة للحكم الدستوري، وألغت الأحكام العرفية الصادرة بعد الحرب العالمية الأولى. في نفس الوقت، احتفظت بسيطرة كاملة على قناة السويس والجيش بدعوى حقها في حماية شؤونها الخارجية ومصالحها وأبقت الوضع في السودان على ما هو عليه حسب اتفاقية الحكم الثنائي لعام ١٨٩٩. ومع أن هذه القيود تبقي مصر تحت السيطرة البريطانية، الا أنها اعتبرت من قبل البعض خطوة على الطريق نحو الحصول على الاستقلال التام.

في حين يرى المؤرخ عبد العظيم رمضان بأن اتفاق فبراير قد حقق لمصر مكاسب شكلية فقط من ملك وعلم ووزارة خارجية، وأن بريطانيا قد قصدت نفي سعد قبل عقد هذا الاتفاق لما كان وجوده في مصر كفيلًا بإحباط المشروع[(٢)]. وقد صرح سعد من منفاه

(١) ماهر حسن، الصحف المصرية تشهد أول احتجاب لها عام ١٩٢٠.. واستمر ٣ أيام احتجاجا على الرقابة عليها، "المصري اليوم"، ٢٠٠٧، عدد ١٢٣٧

(٢) د. عبد العظيم رمضان، "الصراع الاجتماعي والسياسي في عصر مبارك"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣، ص: ٦٥٦.

في سيلان بأن هذا التصريح "نكبة وطنية" ووصف الاستقلال الذي أتى به التصريح أنه استقلال مزيف[1].

وفي نفس العام، تم تأليف حزب جديد وهو "حزب الأحرار الدستوريين" برياسة عدلي يكن، وهو امتداد لحزب "الأمة" القديم، وكان من الأحزاب الأقلية إلا أن له دورًا مشهودًا في الميدان السياسي، وقد أصدر صحيفة "السياسة" لمحررها محمد حسين هيكل لتكون لسان حالة.

وإحياءً لمناسبة ثورة ١٩١٩، سجل الرسام رفقي في كاريكاتير نشر في "خيال الظل" في عام ١٩٢٤ خضوع بريطانيا للمطالب الشعبية ومنها القبول بالتفاوض مع سعد زغلول كممثل للأمة. فقد قارن رفقي بين حالة البريطانيين مع سعد قبل الثورة والتي اتسمت بالعداء الشديد له وبين ما بعد الثورة عندما اضطر البريطانيون أنفسهم بالترحيب به وبقبول التفاوض معه.

ورسمت "الكشكول" ضد سياسة بريطانيا "المتلونة" بعد الحماية. ففي كاريكاتير تصدر غلاف الكشكول (٣١ يوليو ١٩٢٥)، أقنعت إنجلترا المندوب السامي البريطاني "السير جورج لويد" ارتداء ملابس فرعون معللة: "عشان قالوا لفرعون من فرعنك قال مش لاقي حد يردني"

شكل ٢١: السير جورج لويد في ملابس فرعون!

السير جورج لويد: "الملابس دي جميلة جدًا بس مش فاهم ألبسها عشان إيه؟؟"

إنجلترا: "عشان قالوا لفرعون من فرعنك قال مش لاقي حد يردني"

(الكشكول، ٣١ يوليو ١٩٢٥)

(١) الدكتور عبد اللطيف احمد حمزة، "الصحافة المصرية في مائة عام"، المرجع السابق، ص: ٦٦، ١٠٥.

والحقيقة أن "الكشكول" لم تكن على طول الخط ضد سعد زغلول وحزب "الوفد"، فهي كانت تهاجم فكرة "لا رئيس إلا سعد"، فهي في أكثر من مناسبة (وإن كانت معدودة) أكدت على وصفه بالزعيم وذكرت بكفاحه هو وزعماء آخرين منتمين "للوفد" ضد الاحتلال ولأجل الاستقلال. فعندما استقالت وزارة زيور باشا وشكل عدلي يكن باشا الوزارة التي تستند وقتها إلى أغلبية مجلس النواب، هاجت الصحف الإنجليزية وشنت هجومًا عنيفًا على مصر منذرة بأن الفوضى لا محالة قادمة وبأن المصالح الأجنبية في خطر، فقد كان واضحًا رفض الإنجليز أن يكون زمام الحكم في أيدي "الوفد"، في الوقت الذي تنفست فيه مصر الصعداء باستقالة وزارة زيور باشا وبعودة الحياة النيابية. وانتقدت الكشكول في عددها ١١ يونيو ١٩٢٦ الحملة الشعواء على مصر، واتهمت وزارة زيور باشا بأنها السبب وراء تعود المندوب السامي البريطاني في التدخل في ما يعنيه وفي ما لا يعنيه. ولهذه المناسبة، نشر كاريكاتير في "الكشكول" في ٢٥ يونيو ١٩٢٦ وفيه سعد باشا واقفًا بحذاء، على مجموعة صحف إنجليزية ومنها "التايمز" يهدد "جون بول" (رمز يمثل بريطانيا) بأن الأمة المصرية أصبح لا يعنيها ما تكتبه الصحف الإنجليزية ولا يخوفها الأسطول الإنجليزي.

يلاحظ أن في مجموعة الرسوم لهذه الفترة، دائمًا ما يصور سعد زغلول بالطرف الأقوى أمام بريطانيا (الطرف الضعيف)، فيبدو ممشوق وطويل القامة جدًا بالمقارنة بجون بول مثلًا ممثلًا لبريطانيا.

شكل ٢٢: أمام إنجلترا!!

جون بول: "تمشي زي الناس والا أخبطك بوكس يوديك سيشل".

سعد باشا: "اسمع يا سي جون بول، أنا صحيح بقيت عيان، ولكن الأمة موش عيانه، لا كلام جرايدكم يهمها ولا اسطولكم يخوفها".

(الكشكول، ٢٥ يونيو ١٩٢٦)

كما نقدت الرسوم سياسة بريطانيا وأطماعها التوسعية في السودان، ففي كاريكاتير نشر "بالكشكول" (٢٩ يناير ١٩٢٦) يصور "جون بول" وهو يغسل قدميه في نهر النيل بالسودان وبجانبه حذائيه في كل واحد منهما فنجان ماء وهو يقول: "أنا آخذ كفايتي من ماء النيل لمصالحي في السودان، والمصريين بزياده عليهم غسالة رجلي"!

كانت "الكشكول" تساند قضية الاستقلال وترفض الحلول الوسط ومبدأ المساومة مع المحتل لأجل الحرية والاستقلال. ففي كاريكاتير نشر في ٢١ يناير ١٩٢٧، يقف سعد زغلول أمام تمثال "نهضة مصر" يخاطب عدلي باشا قائلًا: "قل لي يا دولة باشا، تمثال نهضة مصر ما بيظهرش ليه في المكان اللي حا يوضع فيه؟ ليرد عدلي باشا قائلًا: "بيقولوا انه مكسوف يظهر قبل احنا ما نظهر الاستقلال..."! وتمثال "نهضة مصر" هو من أشهر أعمال النحات محمود مختار الذي كشف عنه الستار عام ١٩٢٨، وهو عبارة عن تمثال من حجر الجرانيت لفلاحة مصرية تمثل مصر تقف بجانب أبو الهول الذي هو في وضع النهوض وتضع يدها على رأسه وهي تنظر إلى الأمام، في إشارة إلى النهوض والتطلع إلى المستقبل: استقلال مصر.

ونشرت "اللطائف المصورة" كاريكاتيرًا في ٧ مارس ١٩٢٧، وفيه فتاة (مصر) تحلي وسطها بالهلال والثلاثة نجوم ومقيدة اليدين (قيود سياسية)، في الوقت الذي يقوم فيه كل من "جون بول" وموسوليني بقص قطعة من ملابسها، ترمز القطعة الأولى لسيناء والقطعة الثانية لجغبوب، وكان التعليق: "لا ندري مبلغ صحة الإشاعة التي راجت في هذين اليومين عن عزم ولاة الأمور على فصل سيناء وضمها إلى فلسطين فإذا صح الخبر أغنتنا صورتنا هذه عن مقالة طويلة في الموضوع واللبيب من الإشارة يفهم -والفتاة هي مصر طبعًا...!"

ومن الملاحظ هنا أن "شائعة" وجود مخطط لدول عظمى لفصل سيناء عن مصر لصالح اللاجئين الفلسطينيين لوضع نهاية للنزاع العربي الإسرائيلي مازالت قائمة حتى يومنا هذا!

شكل ٢٣: تحوطة مصر!

مصر: "اختشوا على عرضكم شوية.....! آه من قيودي".

جون بول: "بس حته صغيره لأجل فلسطين جارتك المسكينة".

موسوليني: "بس حته صغيره لأجل طرابلس جارتك الفقيره".

(اللطائف المصورة، ١ مارس ١٩٢٧)

ونشر كاريكاتير آخر في ٢١ مارس تحت عنوان "مدد يا رفاعي مدد"، صور فيه الشعب المصري على هيئة رجل يحمل سيفًا (الصحافة) ويمتطي حصانًا (الحكومة) ويقاتل تنينا (الامتيازات الأجنبية).

شكل ٢٤: مدد يا رفاعي مدد!

(اللطائف المصورة، ٢١ مارس ١٩٢٧)

ومن أجمل ما رسم في تصوير مصر في الكاريكاتير السياسي ما نشر في ٢٠ يونيو، وفيه الأمة المصرية على هيئة ملكة فرعونية شابة وجذابة ذات قوام جميل، وترتدي ملابس فرعونية أنيقة وتجلس على أريكة ذات طابع فرعوني وهي مربغة اليدين، وتنظر غير راضية إلى "جون بول" الذي يحاول كسب ودها وصداقتها!

شكل ٢٥: جون بول والأمة المصرية!

جون بول: "ونحن الآن بقينا...أصحاب...أليس كذلك...؟"

الأمة المصرية: "الأمر يتوقف على ما أناله من ترضية وكرامة وحرية واستقلال كأمة "ذات سيادة""

التعليق المصاحب للكاريكاتير: "نحمد الله على انتهاء الأزمة السياسية التي أزعجت البلاد حينًا ليس بالقصير. وإذا كانت التجارب خير معلم للإنسان فان هذه التجربة علمت إنجلترا إن مصر أمة مسالمة تتمسك بحقها وتفهمه تمامًا. فلا ترهبها المدافع والأساطيل والجحافل والطيارات لأن القوة إذا امتلكت الأجساد فهي لن تمتلك القلوب. وقد كان الشرق مهد الفلسفة والأديان والسلام فهو لا يفهم لغة المدفع والحسام وإنما يفهم أن الحق يعلو ولا يعلى عليه..!"

(اللطائف المصورة، ٢٠ يونيو ١٩٢٧)

وواجهت "اللطائف المصورة" قانون المطبوعات بالنقد لما كان يشكل تهديدًا للصحفيين المصريين عند أداء مهمتهم وقمعًا لأقلامهم، في حين ينعم الصحفيون الأجانب في منأى من أي سوء. ففي الكاريكاتير التالي، ثور هائج (قانون المطبوعات) يطارد المفكر والناقد الصحفي محمود عزمي، أحد دعاة حرية الصحافة وحقوق الإنسان والصحفيين،

لانتقاده مجلس الوزراء في صحفية "السياسة" في مقالة بعنوان "يجب وضع حد لهذه التدخلات وإلا كان الدستور حبرًا على ورق"، التي اعتبرتها النيابة ماسة بالذات الملكية وطلبت محاكمته أمام محكمة الجنايات، في حين يقف اثنان متفرجان يتناقشان في الفرق بين امتيازات مرتدي القبعة ومرتدي الطربوش!

شكل ٢٦: قانون المطبوعات!

- "البرنيطه بتحمي بتوع الامتيازات من هذا الثور ولكن صاحبك مصري!"
- "البرنيطه؟ تحميه من الشمس بزياده هاها!"

وصاحب الكاريكاتير تعليق كان نصه: "مع احترامنا لقوانين الحكومة وأنظمتها فإننا لا نرى بدا من نشر هذه الصورة الكاريكاتورية الرمزية التي تمثل قانون المطبوعات هائجًا يطارد الأستاذ عزمي محاولًا البطش به. وما هذه بأول مرة نشرت اللطائف فيها صورة ما يحيق بالصحافة والصحافيين من الكرب والضيق بسبب هذا القانون الصارم الذي يجعل الصحافي في فزع وقلق يخشى في كل دقيقة أن يشط به القلم فينالـه ذلك القانون وينزله من منبر الوعظ والإرشاد وتثقيف الناس بعلمه ومواهبه وأخباره الصحافية ليرمي به في غياهب السجن بين السارقين والسفاحين والقتلة المجرمين. وصورتنا تلمح أيضًا الى الامتيازات الأجنبية التي تشمل بفوائدها الصحافيين الأجانب في مصر فهم في مأمن من ذلك القانون الذي لا يستطيع أن ينالهم بسوء عكس إخوانهم المصريين، ونحن نستسمح من الزميل الأستاذ عزمي عذرًا لتصويره في موقف المنهزم الهارب فهو أكبر من أن يهرب خائفًا وإنما هي صورة كاريكاتورية ومداعبة بريئة تشرح حالة الصحفي المصري المنكود الحظ وموقفه الحرج.

(اللطائف المصورة، ٢٤ أكتوبر ١٩٢٧)

دستور ١٩٢٣ :

يبدو أن الدستور المصري كان ولا يزال شغل شاغل المصريين. فقد تم إصدار دستور ٢٣ في ١٩ إبريل من عام ١٩٢٣، والذي يضمن العدالة والمساواة بين المصريين في ظل القانون ويضمن حرية المعتقدات وإقامة الشعائر الدينية، وحرية الرأي والتعبير وتشكيل الأحزاب السياسية وإنشاء البرلمان مع ممثلين لمجلس الشيوخ والنواب، والذي عرف بعد ذلك بمجلس الشورى ومجلس النواب، كما يكفل حرمة المنازل والرسائل السرية وحرمة الملكية الخاصة وحظر مصادرة الأموال[١]. إلا أن الدستور كان به بعض العيوب والتي من بينها أنه كان يعطي الملك الحق في تعيين وزراء وحل مجلس النواب في أي وقت يشاء وبدون إبداء أسباب، كما يعطي الملك السلطة لإعطاء أوامر لها قوة القوانين.

ومع ذلك فقد قوبل إعلان إصدار الدستور بحفاوة كبيرة من قبل القوى السياسية والحركات الوطنية حيث رأوا فيه وفي النظام البرلماني الطريق الأمثل للحكم في مصر ودليلًا عمليًا على استقلالها والضمان لعدم قيام حكم استبدادي فردي. وبالرغم من ذلك لم تهنأ الأمة بحياة دستورية حقيقية فقد تم الاعتداء عليه من قبل السراي والاحتلال وتم الاستهانة به وبالإرادة الشعبية والالتفاف على بنوده مرات عديدة وكان أخطرها عام ١٩٣٠ عندما تم إلغاؤه كانتهاك وتحدي حقيقي ضد الرغبة الشعبية.

عقدت أول انتخابات وفقًا لدستور ٢٣ في يناير ١٩٢٤، والتي أسفرت عن فوز حزب "الوفد" برئاسة سعد زغلول بـ ٩٠٪ من المقاعد. ومع أن "الوفد" في الانتخابات السابقة كان أيضًا يقتحم البرلمان بأغلبية ساحقة، إلا أن الملك فؤاد انزعج بشدة لهذه النتائج ورأى أن الدستور الجديد خيب أمله وأعطى "للوفد" ذي الشعبية فرصًا أكبر في التمثيل داخل البرلمان[٢].

وفي محاولة لإضعاف حزب "الوفد" والتقليل من نفوذه، أوعزت السراي في يناير ١٩٢٥ بإنشاء حزب جديد وهو حزب "الاتحاد" الذي أشرف على تأسيسه حسن نشأت، وكيل الديوان الملكي. فأغلب الظن أن السراي تصورت أنه من الممكن أن ينال حزبها

---

(١) طارق البشري، "الديمقراطية ونظام ٢٣ يوليو ١٩٥٢-١٩٧٠"، مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧، ص: ١٣.

(٢) سلمى بوتمان:

Selma Botman. (1991). Egypt from independence to revolution, 1919 – 1952. New York: Syracuse University Press..

الجديد شعبية تنافس بها الوفد، إلا أنه سرعان ما أصابها خيبة الأمل حيث لم يخف على الناس حقيقة الحزب الذي شاع عنه أنه حزب السراي وبالتالي لم يجد الاستجابة المرجوة من الشعب.

شهدت انتخابات عام ١٩٢٥ محاولات مستميتة وانتهاكات للوصول إلى نتائج نهائية ترتضيها السراي، فتم تعديل توزيع الدوائر وتم منع الناس من دخول بعض لجان الاقتراع ووضعت أسماء في جداول الناخبين لا وجود لها، وعلى الرغم من كل ذلك حصل "الوفد" على ١١٦ مقعدًا في حين حصلت الأحزاب غير الوفدية على ٨٧ مقعدًا[١].

لم يطق الملك ذرعًا بالوفد وبفوزه المستمر ورأى أن المشكلة لابد وأنها تكمن في الدستور، فطلب من إسماعيل صدقي تشكيل حكومة جديدة وصيغة دستور جديد يزيد من نفوذه ويعطيه سلطات واسعة. وبالفعل أصاغ صدقي دستورًا جديدًا يعطي مزيدًا من السلطة للملك خاصة فيما يتعلق بالانتخابات وأطلق عليه دستور ٣٠ والذي قوبل بمعارضة شديدة وأصبح معروفًا عند العامة بـ "دستور صدقي" سخرية وتنكيتًا به، وخرجت مظاهرات قوية تندد بالدستور الجديد وبحكومة صدقي ومطالبة أيضًا بعودة دستور ٢٣.

اتسمت فترة حكم صدقي بالدكتاتورية مما جعلها الفترة الأصعب في مصر، فقد شهدت حملة اعتقالات واسعة لصحفيين ومثقفين معارضين[٢](شكل ٢٧). وعلى الرغم من ذلك، شهدت حضورًا قويًا للرسوم الكاريكاتورية ضد دستور ٣٠ وضد سياسات صدقي في ظل رقابة صارمة فرضت على الصحف والمجلات وخاصة على الرسوم الكاريكاتورية التي كان صدقي يكن لها عداءًا شديدًا، والتي تصوره تارة كعدو للشعب موالٍ للقصر وتارة أخرى كخائنٍ موالٍ للإنجليز. وتألقت في تلك الفترة وبشدة مجلة "روزاليوسف"، التي عرفت بحملتها الشرسة على صدقي من خلال عدة رسوم كاريكاتورية قوية لاذعة للدرجة التي دفعت صدقي إلى سحب رخصتها وإصدار قرار إغلاقها. إلا أن هذا لم يمنع صاحبة المجلة السيدة فاطمة اليوسف من الاستمرار في نقد

(١) محمد زكي عبد القادر، "محنة الدستور ١٩٢٣-١٩٥٢"، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٣، ص:٦٣- ٦٤.

(٢) سلمى بوتمان، المرجع السابق.

صدقي وسياساته. ففي تحد صارخ، استمرت فاطمة اليوسف في نشر الرسوم في مجلة "الربيع" ثم في مجلة "الصرخة"، وهي تنوه على غلاف المجلتين بأن أسرة "روزاليوسف" مشاركة في التحرير ومسؤولة عن الرسوم الكاريكاتورية المنشورة[١].

ظهر في تلك الفترة الرسام المصري الأرمني الأصل ألكسندر صاروخان الذي يعتبر بحق علامة فنية أثرت الحياة الكاريكاتورية في مصر، والذي تميزت خطوطه كثيرًا عن رواد عصره، فقد كانت خطوطًا سميكة تهتم بالتفاصيل ولكنها أكثر رشاقة تنبض بالحركة والحيوية، وكأنك تشاهد لقطة من فيلم لرسوم متحركة. قدم صاروخان إلى مصر بدعوة العمل في مجلة فكاهية جديدة ولكنها لم تدم أكثر من عددين ليتخبط من مهنة لأخرى حتى اكتشفه رئيس تحرير روزاليوسف آنذاك محمد التابعي، ليظهر أول كاريكاتير له متصدرًا غلاف روزاليوسف في ٣ مارس ١٩٢٨.

وتوصل التابعي وصاروخان إلى ابتكار شخصية "المصري أفندي" التي تعتبر من أهم وأشهر الشخصيات الكاريكاتورية التي شهدها القرن العشرون والتي كان أول ظهور لها على صفحات روزاليوسف في عام ١٩٣٢، لتعبر عن هموم الشعب ولتعكس نبض الشارع ولتعمل كأداة تحريضية لشحن الرأي العام تجاه بعض القضايا والمواقف السياسية (انظر الفصل السادس).

ثم خرج التابعي ومعه صاروخان عام ١٩٣٤ من روزاليوسف ليصدرا مجلة "آخر ساعة"[٢]، التي شهدت نضوجًا في رسومات صاروخان التي عكست مدى ذوبانه في نسيج المجتمع المصري وأحداثه، ثم انتقل مع التابعي عام ١٩٤٦ إلى "أخبار اليوم" ليعملا بها حتى وفاتهما، وقد تم منحه الجنسية المصرية عام ١٩٥٥.

---

(١) رانيا صالح:
Rania Saleh. (2004) Egyptian Political Cartoons: Evolution and Impact As Seen By the Cartoonists Themselves, M.A. Thesis, Department of Journalism and Mass Communication, the American University in Cairo.

(٢) ناصر عراق، "تاريخ الرسم الصحفي في مصر"، دار ميريت للنشر، القاهرة، ٢٠٠٢.

شكل ٢٧: زبون جديد!!

"(دولة رئيس الوزراء): بتعمل ايه يا حسن بك؟...صورة مين دي اللي بتعلقها؟"
"(مدير الأمن العام): دي صورة الدكتور حسين هيكل بتاع السياسة....باعلقها في لوحة الصحفيين المشبوهين اللي تحت المراقبة!"

(الصرخة، ٤ نوفمبر ١٩٣٠)

صور صاروخان المشاعر الشعبية الغاضبة تجاه إلغاء دستور ٢٣ في كاريكاتير تصدر غلاف مجلة "الصرخة" (شكل ٢٨) تحت عنوان: "تحتفل البلاد على مرور أربعين يومًا على وفاة فقيد البلاد المأسوف على شبابه ... دستور ١٩٢٣!!!" فنجد ضريح دستور ٢٣ تبكيه مصر في هيئة سيدة شابة تتزين بالهلال، ولإضفاء مزيد من الواقعية نجد المقرئ بردائه المميز منهمكًا في التلاوة على قبر المأسوف على شبابه، وفي نفس الوقت يقدم المندوب السامي البريطاني تعازيه لإسماعيل صدقي قائلًا: "كلنا لها!... و البركة فيكم..." ليرد صدقي قائلًا: "استغفر الله!...و فيكم انتم كمان..." في إشارة واضحة إلى أن في القضاء على دستور ٢٣ ما يخدم مصالح الإنجليز وما يثبت ولاء إسماعيل صدقي لهم!

شكل ٢٨: اغتيال دستور ٢٣!

(الصرخة، ٢ ديسمبر ١٩٣٠)

وفي كاريكاتير آخر، صدقي منهمك في صياغة الدستور الجديد بينما رئيس الوزراء السابق أحمد زوار باشا (١٩٢٤-١٩٢٦) يؤكد له بأن الأهم من صياغة دستور جديد القدرة على تطبيقه، قائلًا: "طيب وأنا ما عملت قانون انتخاب في سنة ١٩٢٦ وطبعته وجلدته ونشرته والذي منه...وآخرتها انسحب!...الشطارة مش في عمل القوانين...الشطارة في تنفيذها!"

شكل ٢٩: عمل الدستور شيء...وتنفيذه شيء آخر!

(الصرخة، ٤ نوفمبر ١٩٣٠)

لم يقتنع الرأي العام وقتها بأن بريطانيا لم يكن لها دور في قرار إلغاء دستور ١٩٢٣، ولم يكن لها رأي في المواد التي أضيفت لدستور ٣٠ والتي منها إصدار قانون انتخابات جديد. وفي كاريكاتير لصاروخان بعنوان (كثرت الإشارة في هذه الأيام إلى تصريح مستر ماكدونالد الخاص بحياد إنجلترا وعدم موافقتها على...طبخ كشوف الانتخابات) تأكيد على معرفة بريطانيا المسبقة "بطبخ" الدستور واتهام صريح "للشيف" إسماعيل صدقي "بطبخ" الدستور وقانون الانتخاب. في الكاريكاتير، يخاطب وزير الخارجية البريطاني آرثر هندرسون رئيس وزراء بريطانيا رامزي ماكدونالد قائلًا: "يا حضرة الرئيس! سبق إنك صرحت مرة إننا ما نوافقش على طبخ كشوف الانتخابات في مصر وأهو اسماعيل صدقي مش طبخ الكشوف بس، ده طبخ كمان الدستور وقانون الانتخاب...ايه رأيك؟."

شكل ٣٠: صح النوم أيها الحياد!
(الصرخة، ١١ نوفمبر ١٩٣٠)

الرسم معبر للغاية ويحمل مضامين مهمة جدًا، فأنت لا تستطيع أن تجهل ابتسامة الرضا على وجه صدقي وملامح الاستغراب على وجه رئيس وزراء بريطانيا وعدم الرضا ونبرة التحذير في ملامح وحدة كلام المندوب السامي البريطاني مما يحمل تلميحًا خطيرًا في أن ما يفعله إسماعيل صدقي ليس من ضغط بريطانيا وإن كان يخدم مصالح بريطانية وانما لخدمة مصالح خاصة جدًا بالقصر، إلا أن حياد بريطانيا المزعوم وعدم موافقتها على طبخ كشوف الانتخابات زائف.

وفي الكاريكاتير التالي اتهام صريح لصدقي بأنه يسعى جاهدًا لنيل رضا الإنجليز وأن دستور ٣٠ كان لكسب ودهم. ففي الكاريكاتير، صدقي يقدم الدستور هدية للمندوب السامي قائلًا: تسمح لي فخامتك أقدم لك هدية نسخة من الدستور الجديد؟ إلا أن "فخامة المندوب السامي" يرد معترضًا قائلًا: لا...على إيه...متشكر! أنا شفته في لندن وعارفه وعارف اللي فيه!

شكل ٣١: عارفه وعارف اللي فيه!
(الصرخة، ١١ نوفمبر ١٩٣٠)

يلاحظ أن في رد المندوب السامي في الكاريكاتير السابق إشارة إلى معرفة بريطانيا المسبقة بمواد الدستور الجديد، وبالتالي فشل صدقي في تحقيق هدفه في كسب ودها. ويلاحظ أن أغلب الرسوم تصور صدقي على أنه متملق للبريطانيين في الوقت الذي لا يقابل البريطانيون صدقي بأي مودة أو ترحاب. بمعنى آخر، يفرض صدقي نفسه عليهم فرضًا.

كما بدا المندوب السامي البريطاني في مجموعة الرسوم هذه الخصم القوي، ولا يظهر كشخص حيادي وإنما كشخص غير مبالٍ، فهو يبدو أكثر ثقة وطمأنينة على مصالحه، بينما يبدو صدقي الخصم الضعيف والمتملق للطرف الآخر. لم تزح هذه الرسوم الاتهام نهائيًا عن ضلوع بريطانيا في مسألة تغيير الدستور هذه، إلا إنها حملت صدقي كل المسؤولية.

ويلاحظ لغة الاحترام السائدة في الرسوم عند الإشارة لمسؤولين بريطانيين، فكثيرًا ما يشار إلى المندوب السامي البريطاني بـ "فخامة المندوب السامي"، وإن ذكر الاسم فلابد

وأن يسبقه "مستر". وأغلب الظن أن هذه الديباجة التي تسبق الاسم هي بفرض من الرقابة، فهي لا تتماشى مطلقًا مع قالب السخرية الموجود في الكاريكاتير.

وفي المقابل، اتخذت صحيفة "الكشكول" خطًا مختلفًا، فقد كانت تساند إسماعيل صدقي في سياسته وتدافع عنه. ففي كاريكاتير تصدر غلاف عدد ٣ أكتوبر ١٩٣٠ بمناسبة تعديل قانون الانتخاب، مصر في هيئة سيدة عجوز تستند على عكاز وترتدي ملابس رثة تخاطب صقي قائلة: أديك شايف يا باشا أنا أصبحت مريضة وهزيلة ومكسحة إزاي؟؟" ليرد عليها صدقي وهو ممسكًا في يده زجاجة دواء كبيرة مكتوب عليها "تعديل قانون الانتخاب" قائلًا: "مافيش غير شربة واحدة هي اللي تطرد الوساخة وترجعك أحسن ما كنت "تعديل قانون الانتخاب"!!"

كما نشرت في ١٣ مارس ١٩٣١ مقارنة بين موقف الوفد من دستور ٢٣ عام ١٩٢٣ وموقفهم منه عام ١٩٣٠، ففي كاريكاتير بعنوان "دستور ١٩٢٣ في سنة ١٩٢٣"، مصطفى النحاس باشا (خليفة سعد زغلول في رئاسة حزب الوفد) مشاركًا رفاقه في حرق "الدستور المصري" قائلًا: "لازم ندوسه تحت رجلينا!!" بينما يؤكد الوفدي حمد الباسل: "ونتف عليه كمان!!" وفي كاريكاتير آخر بنفس العدد بعنوان "دستور ١٩٢٣ في سنة ١٩٣٠"، مجموعة الوفد تبكي الدستور، ليقول مكرم عبيد باشا "الشهير بـ(وليم)": "ياخراب بيوتنا بعدك!!" ليقول الباشا النحس: "يالللي عمري ما بقيت شليف الوزارة بعدك، يا للي كنت عزبة، وخزانة، ومحكمة، يا أبو الدساتير؟؟" في إشارة إلى أن الوفد كان من أكثر المعارضين على دستور ٢٣، وبالتالي فإن اعتراضه على إلغائه اليوم ليس له تفسير غير طمعه في الوزارة ليس إلا.

وكانت "الكشكول" ترد على مهاجمة صدقي واتهامه بالعمالة للإنجليز، بمهاجمة الوفد بشراسة واتهامه بالعمالة للإنجليز وأن سعيه للوصول إلى الحكم لا يخرج عن كونه هدفًا لتحقيق مصالحه هو وليس للمصلحة الشعبية كما يزعم. فمن الملاحظ أن وزارة مصطفى النحاس قد استقالت في ١٩ يونيو ١٩٣٠ أي بعد حوالي ستة أشهر من تكليفها والتي خلفها وزراة إسماعيل صدقي. ولذلك كانت تروج "الكشكول" بأن معارضة الوفد لوزارة إسماعيل صدقي إنما هي معارضة شخصية بسبب وجود الوفد خارج زمام الحكم وليس لسوء إدارة صدقي.

ففي كاريكاتير نشر في ٤ يوليو ١٩٣٠ بعنوان "بعد قبول استقالة النحاس"، مصطفى النحاس وهو يقف بجانب شخصية كاريكاتورية تدعى "زهرة"، عباره عن سيدة ترتدي "الملاءة" و"البرقع الشبك"، تحدث قارئ البخت قائلة: "من فضلك يا شيخ علي بص في الفنجان ده وقول لي بخت أخويا (تقصد النحاس) إيه!" الشيخ علي: "اللي باين لي

يا ستي زهرة إنه حايتجنن ويروح المورستان!!" وفي كاريكاتير آخر في نفس العدد بعنوان "سياسة الوفد والإنكليز" وفيه الدكتور حامد محمود يخاطب آرثر هندرسون وزير الخارجية البريطانية قائلًا: "بقى تسيبونا كدا يا مستر هندرسون وإحنا بندوب في دباديبكم!!" ليرد مستر هندرسون قائلًا: "بلاش كدب، أنتم دايبين في دباديب الحكم!!"

وأوضحت "الكشكول" الفرق من وجهة نظرها بين النحاس وصدقي في كاريكاتير نشر في ١ أغسطس ١٩٣٠ من مشهدين، في المشهد الأول، يفتح النحاس باشا لجون بول الباب على مصراعيه مرحبًا به قائلًا: "في عرضك اتفضل يا مستر جون بول خش بيتنا واحمينا"، أما في المشهد الثاني صدقي باشا يحاول جاهدًا بكل قوة أن يحول بين دخول "جون بول" من الباب، بعد محاولات "جون بول" الفاشلة في استمالته.

ومن الجدير بالذكر أن إسماعيل صدقي هو أحد رفقاء سعد زغلول في المنفى، وقد قرر الوفد اعتباره منفصلًا عن الحزب في يوليو ١٩١٩ لما نسب إليه من مخالفته مبدأ الوفد وخطته، بما يشكل أول انشقاق يحدث في الوفد[١]. ويبدو أن صدقي لم ينس هذا وراوده حلم أن يكون له حزب يرتكن عليه في حياته السياسية، فأسس في عام ١٩٣٠ حزب "الشعب" كحزب معاد للوفد طامعًا أن يلقى شعبية بالقدر الذي يناله الوفد أو أكثر. ومن المثير للسخرية أن الحزب الذي أسسه صدقي وهو في الحكم ليستند عليه في حياته قد لفظه واختار رئيسًا غيره وهو عبد الفتاح يحيى باشا إبراهيم الذي خلفه في الوزارة في ٢٧ سبتمبر عام ١٩٣٣.

وكنتيجة لإعلان دستور ٣٠ وقانون الانتخاب الجديد، قاطع حزب الوفد وحزب الأحرار الدستوريين الانتخابات التي انعقدت في يونيو ١٩٣١، ليخلو بذلك البرلمان من أي وفدي للأربع السنوات التالية[٢]. واستفاد الحزب الجديد كثيرًا بمقاطعة الوفد للانتخابات ليفوز بأكثر من نصف مقاعد البرلمان. استفز هذا العديد من المصريين ونتج عنه أعمال شغب ضد القصر وضد نظام صدقي.

ونال بالفعل حزب صدقي شعبية ولكنها من نوع خاص. فقد أصبح حزبه طبقًا رئيسيًا على مائدة الكاريكاتير وأطلق عليه "حزب القش" دلالة على هشاشته وضعفه. ومن الجدير بالذكر أن "الكشكول" في ٢٣ أكتوبر ١٩٢٥، قد سبق وأن أطلقت على حزب "الاتحاد" بحزب من "قش"! في الكاريكاتير التالي، نجد صدقي منهمكًا في دراسة العديد

(١) عبد الرحمن الرافعي، "ثورة ١٩١٩: تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١"، المرجع السابق، ص: ٣٥٨.

(٢) صلاح منتصر، "من عرابي إلى عبد الناصر: قراءة جديدة للتاريخ"، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٣.

من الأوراق التي تمثل التحديات التي تواجه حزبه الجديد والتي من أبرزها حزب "الوفد" ذو الشعبية وحزب "الأحرار الدستوريين" برئاسة محمد محمود والذي جاهد صدقي في ضمه لحزبه الجديد لكنه فشل، ومظاهرات "الطلبة" وهجوم "الصحف". وأعتقد أن المقصود بالصحف هنا الصحف المعارضة لحزبه من أمثال "المساء" و"السياسة". ومن ضمن التحديات التي أشار إليها الكاريكاتير، "لندن" و"المصروفات السرية" وأترك هذا العنوان لخيال القارئ ليخمن دلالاتها وإن كان ثمة رابط بينهما. ويشير الكاريكاتير إلى انشغال صدقي المبالغ بحزبه وبالتحديات التي تواجهه عن مشاكل مصر الحقيقية، فنجد الأزمة تخنق مصر، الممثلة في سيدة تتزين بالهلال، التي تصرخ وتستنجد قائلة: "الحقوني...أغيثوني...يا كفاءات...يا نبوغ...ياهو!" فيرد عليها صدقي دون أن يعيرها انتباهًا: "بلاش خوتة دماغ! مش فاضي...سلامتي أنا أولا... وسلامتك أنت بعدين."

شكل ٣٢: حزب القش!

(الصرخة، ١٨ نوفمبر ١٩٣٠)

في حين نشرت "الكشكول" كاريكاتيرًا ضد محاولات التهويل من "الأزمة" التي تم تصويرها في شكل أسد (إنجلترا) صغير الحجم يمسك بفمه طرف ملابس سيدة (مصر)، التي تعلقت في رقبة صدقي خوفًا منه، ليهدئ من روعها صدقي قائلًا: "أزمة إيه وبتاع إيه ما تخافيش، أنا مش النحاس ولا محمد محمود، أنا صدقي!!".

شكل ٣٣: الأزمة!
(الكشكول، ٤ مارس ١٩٣٢)

وبمناسبة مقاطعة الوفد والأحرار الدستوريين الانتخابات، نشر كاريكاتير في "الكشكول" في ١٦ يناير ١٩٣١ بعنوان "تحت جزمة جون" وفيه مصطفى النحاس باشا ومحمد باشا محمود يجلسان على الأرض كالشحاذين يحاولان استمالة "جون بول"، فيخاطب محمد باشا محمود جون بول قائلًا: "مادام مش راضي تخليني أنا والنحاس نبوس راسك هات جزمتك نبوسها". ليرد "جون بول" وظهره لهما قائلًا: "برده الله يحنن عليكم،" في إشارة إلى "تطلع" كلا الحزبين إلى تدخل إنجلترا لمساندتها!!

كانت صحيفتي "الثغر" و"الاتحاد" ناطقتين باسم حزب الشعب، في مقابل صحف معارضة مثل "المساء" و"الضياء" و"الصرخة" و"السياسة". في الكاريكاتير التالي، أعضاء من حزب الشعب يستخدمون "الثغر" و"الاتحاد" كشمسيتين لتقيهم من مطر وعواصف صحف المعارضة. ولكن هيهات، فالشمسيتان صغيرتان بشكل مبالغ لا ينفعان بشيء تمشيًا مع عنوان الكاريكاتير: "المتغطي بهم عريان!"

شكل ٣٤: المتغطي بهم عريان!

(يقال أن أنصار النظام الجديد عدلوا عن إصدار جريدة جديدة تكون لسان حالهم، مكتفين بجريدتي الثغر والاتحاد؟!)

"-شمسية ايه دي اللي مش قادرة تحوش المطر ده كله عنا؟"

"-يا أخي احمد ربنا!...برده أحسن من مفيش خالص!"

(الصرخة، ١١ نوفمبر ١٩٣٠)

ولزيادة عدد أعضاء حزبه، قام صدقي بمحاولات عدة لإغراء حزب الأحرار الدستوريين برئاسة محمد محمود للانضمام لحزبه، إلا أنه فشل (شكل ٣٥). في ذلك الوقت، كان حزب الأحرار الدستوريين متعاونًا مع حزب الوفد في كفاحه لإنقاذ دستور ٢٣.

شكل ٣٥: صدقي وحزب الأحرار!

"كيف كان إسماعيل صدقي باشا يريد أن...يضم إليه حزب الأحرار!"

"(محمد محمود باشا): أنت عايز تضمني...وإلا عايز تخنقني؟!"

(الصرخة، ٤ نوفمبر ١٩٣٠)

وفي الكاريكاتير التالي صدقي منهمك في مكتبته يقرأ كتاب بعنوان "المستور في هدم الدستور" للتحضير لخطابه الذي سيلقيه في اجتماع حزبه في الغد.

شكل ٣٦: خطبة الغد؟!

"دولة رئيس الوزراء يشتغل في مكتبه في إعداد الخطبة التي سيلقيها غدا في إجتماع حزب الشعب"

(الصرخة، ٩ ديسمبر ١٩٣٠)

والكاريكاتير التالي يكشف عن حلم صدقي في أن يكون خلفًا لسعد زغلول وإن كان ينافسه في ذلك على ماهر باشا الذي كان من أوائل الذين خرجوا من الوفد وكان يعمل في وزارة صدقي في ذلك الوقت والذي قاده طموحه السياسي إلى تقلد منصب رئيس الوزراء عدة مرات فيما بعد. يقول صدقي لعلي ماهر وهما يحاولان ارتداء بدلة سعد زغلول الغير ملائمة لمقاسهما: "بعد الانتخابات القادمة، سوف أصبح زعيم الأغلبية وخليفة سعد زغلول! " فيرد عليه علي ماهر قائلًا: "على مهلك شوية!...بدلة سعد باشا دي ما فيش حد يعرف يلبسها غيري!!".

شكل ٣٧: بدلة سعد زغلول؟!
(الصرخة، ٢٥ نوفمبر ١٩٣٠)

اشتد الصراع ضد حكومة إسماعيل وضد السراي وضد دستور ٣٠، وعلا صوت المعارضة على الرغم من التضييق عليها، وتصاعدت مظاهر الاحتجاج والتي لم تخل من العنف ضد سياسة صدقي التي قابلها بالقمع مستندًا على الملك والاحتلال، وفي ١٣ نوفمبر ١٩٣٣ تم القبض على ثلاثة من محرري "الصرخة" لمقالاتهم التي كانت تحمل عناوين "يا شباب سنة ١٩٣٣ كن كشباب سنة ١٩١٩" بقلم أحمد حسين، و"هل هذه وظيفة الجيش؟" بقلم فتحي رضوان، و"الإنجليز خصومنا" بقلم حافظ محمود[١].

واستمر الصراع لعودة الدستور خلال وزارة عبد الفتاح يحيى باشا التي تألفت في ٢٧ سبتمبر ١٩٣٣ ووزارة محمد توفيق نسيم باشا التي تشكلت في ١٤ نوفمبر ١٩٣٤. وأثمرت مساعي نسيم باشا عن صدور أمر ملكي في ٣٠ نوفمبر ١٩٣٤ بإبطال العمل بدستور ١٩٣٠، وحل مجلسي البرلمان القائمين على أساسه، الأمر الذي استقبل بحفاوة شديدة حيث كان تتويجًا لكفاح الشعب خلال السنوات الأربع السابقة وإن لم يتم صدور أمر بعودة دستور ١٩٢٣، لتبقى البلاد بلا دستور.

وكانت الصحف الإنجليزية في ذلك الوقت تروج لفكرة دستور جديد يكون وسطًا بين دستور ٣٠ ودستور ٢٣ الذي وصفته صحيفة "الديلي تلجراف" (كما نشر في الأهرام في ٨ يناير ١٩٣٥) بأنه "وثيقة وضعت على عجل، وقامت على الطراز الأوروبي،

(١) سمير صبحي، "في دهاليز الصحافة". تقديم محمد حسنين هيكل، الهيئة العامة للاستعلامات، القاهرة، ١٩٨٢، ص: ٩٩ - ١٠٠.

برهنت الحوادث قبلًا على أنه لا يصلح للبلدان المتأخرة سياسيًا، وعلى أنه يلائم تمامًا سلطة الوفد وسيادته"[١].

تقدم نسيم بطلب إلى القصر يخير الملك بين أن يأمر بإعادة دستور ٢٣ أو أن يأمر بتأليف جمعية وطنية ترضاها البلاد لوضع دستور جديد، فآثر الملك إعادة دستور ٢٣، إلا أن القوى الوطنية لم تلحق أن تفرح بقرار الملك، فقد كان ولا بد للقوى السياسية أن تحصل على موافقة الحكومة البريطانية بعودة الدستور، ليأتي رد بريطانيا صادمًا ومخيبًا للآمال ومخالفًا لجميع التوقعات، فقد أصرت بريطانيا على موقفها المعارض من دستور ٢٣[٢].

وقضى تصريح صمويل هور، وزير خارجية بريطانيا، في ٩ نوفمبر ١٩٣٥ على أي أمل في أن تعيد بريطانيا النظر في موقفها إزاء الدستور، التصريح الذي كان بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير ليشتعل على إثره ثورة ١٩٣٥. فقد صرح هور بتمسك بريطانيا بموقفها برفضها عودة دستور ٢٣ أو دستور ٣٠، فالأول "قد ظهر أنه غير صالح، وأن الثاني لا ينطبق مطلقًا على رغبات الأمة"[٣].

أثار تصريح هور حفيظة الشعب، فقامت المظاهرات في جميع أنحاء البلاد تندد بما قاله هور وتهتف ضد الإنجليز وتنادي بإسقاط وزارة نسيم. بدأت المظاهرات في ١٣ نوفمبر ١٩٣٥، اليوم المخصص للاحتفال بعيد الجهاد، وهو اليوم الذي توجه فيه سعد زغلول ورفاقه إلى المندوب السامي للمطالبة بالسماح لهم بالسفر لعرض مطالب مصر في مؤتمر باريس، مما شكل صفعة لبريطانيا التي لم تتوقع أن يشعل تصريح هور الاضطرابات في البلاد، ليعود بذاكرتها وقائع ثورة ١٩١٩. وبدأت المظاهرات بالطلبة التي قابلها البوليس بكل عنف ووحشية فأطلق عليهم النار ليكون أول شهداء هذه الثورة من طلبة الجامعة، لتشار حفيظة الأمة وتعلن الإضراب العام يوم ٢٨ نوفمبر حدادًا على أرواح الشهداء، فأغلقت المقاهي وتعطلت المصالح واحتجبت الصحف[٤].

(١) عبد العظيم محمد رمضان، "تطور الحركة الوطنية في مصر من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٣٦"، دراسات في القومية العربية، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٣، ص: ٧٧٣.

(٢) عبد العظيم محمد رمضان، "تطور الحركة الوطنية في مصر من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٣٦"، المرجع السابق، ص: ٧٧٥- ٧٧٦.

(٣) عبد العظيم محمد رمضان، "تطور الحركة الوطنية في مصر من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٣٦"، المرجع السابق، ص: ٧٨٢.

(٤) عبد العظيم محمد رمضان، "تطور الحركة الوطنية في مصر من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٣٦"، المرجع السابق، ص: ٧٨٤.

شكل ٣٨: تصريح هور!

توفيق نسيم: "يا سيدي ماتشوفوا قفل تركبوه على فم صمويل هور بتاعكم ده!! أديكم القفل اللي باستعمله!!"

جون بول: "وهوه صمويل هور قال حاجه جديدة مانتش عارفها!!"

(روزاليوسف، عدد ٤٠٧)

بعد خطاب السير صمويل هور

شكل ٣٩: بعد خطاب السير صمويل هور!

جون بول: "يا مصري أفندي أنا آسف للمفاجأة الغير سارة اللي فوجئت بيها دي وماكنش لك في حساب"

المصري أفندي: "لا والله يا سيدي دي كانت في حسابي من زمان! دوّر على اللي فوجئوا بيها صحيح من يومين بس!!"

(روزاليوسف، ١٨ نوفمبر ١٩٣٥)

أهم ما يميز هذه الثورة أنها كانت ثورة شباب بدأت سلمية وعفوية ليست من تدبير أو صنع أحد بعيدةً عن أي قوى سياسية أو حزبية مدفوعة بشعور وطني عميق يهدف إلى تحقيق مطالب البلاد في الدستور والاستقلال، فلم يكن لها أي أهداف شخصية. وشهدت أيضًا الثورة حضور قوي ومشاركة من طالبات المدارس والجامعات جنبًا إلى جنب الطلبة الشباب. فلقد خرج الطلبة في مسيرة ضخمة من الجامعة واتجه معظمهم إلى ناحية كوبري الجلاء، وبعد أن اجتازوا الكوبري انضمت إليهم مظاهرة أخرى فزاد عددهم كثيرًا. ولما أرادوا اجتياز كوبري الاسماعيلية متجهين إلى الميدان (التحرير الآن) تعرضت لهم قوة من البوليس وحاولت منعهم بالقوة فحدث اشتباك بينهم. وأطلق الجنود الإنجليز الرصاص على المتظاهرين، ليقع عدد من القتلى والجرحى. وصمدت المسيرة وواصلت طريقها إلى الميدان، ثم تفرعت، فسار معظمها نحو ميدان عابدين واتجه عدد كبير إلى دار المندوب البريطاني، وهم يهتفون بسقوط الإنجليز وسقوط هور[1].

وصلت ثورة الطلبة صداها أنحاء أوروبا وبدأ مراسلو الصحف الأوروبية يرصدون أول بأول تطورات الموقف، فبعث مراسل صحيفة "الجورنا" الباريسية في القاهرة إلى صحيفته يقول في رسالة: "إن وجه الشبه بين الموقف اليوم وأوائل حركة الثورة في سنة ١٩١٩ لا تخفي على أحد، ولا على المقامات البريطانية نفسها. وإن التساهل في أمور ثانوية لن يكون بعد الآن كافيًا لتهدئة خواطر الأمة"[2].

لم ترتقي هذه الثورة لتكون مثل الثورة الأم ١٩١٩ لا في الحجم ولا في الفترة الزمنية، إلا أنها كانت علامة فاصلة في تاريخ مصر السياسي، فقد استطاع الشباب تحقيق في مدة محدودة ما لم تستطع الأحزاب السياسية الأكثر علمًا ببواطن الأمور تحقيقه!

ويبدو أنه لم تكن فقط بريطانيا التي تفاجأت بثورة الشباب وقدرتهم على الضغط في الاتجاه الذي تنشده البلاد، إنما تفاجأ بهم أيضًا الأحزاب السياسية وعلى رأسها حزب الوفد والأحرار الدستوريين اللذان حاول كل منهما أن يستولي على حركة الشباب ويضمها تحت لوائه. ليس هذا فحسب، بل في ظل هذه الأحداث الفارقة في تاريخ الأمة نشبت الخلافات بين الأحزاب بعضها البعض والاتهامات المتبادلة، لتتصدع جبهة الشباب هي الأخرى نتيجة تأثرها بالجدال الدائر[3].

---

(١) دكتور ضياء الدين الريس، "الدستور والاستقلال والثورة الوطنية ١٩٣٥"، الشعب، القاهرة، الجزء الثاني، ١٩٧٦، ص: ٧٨.

(٢) دكتور ضياء الدين الريس، المرجع السابق، ص: ١٠٥.

(٣) دكتور ضياء الدين الريس، المرجع السابق، ص: ١٢١.

كان أهم الاختلافات التي طفحت على السطح وقتها هي حول ما يتعلق بقضيتي الدستور والاستقلال. فقد تبنى معسكر للشباب موقف الوفد المطالب بعودة الدستور أولًا والمشكك في نوايا الأحزاب الأخرى، بينما تبنى فريق آخر موقف الأحرار الدستوريين المطالب بالاستقلال أولًا والطاعن في أي رأي آخر، لتنتقل عدوى التراشق بالاتهامات والتشكيك في نوايا الآخر إلى معسكرات الشباب[1].

وسرعان ما اتحدت صفوف الطلبة مرة أخرى الذين ضاقوا بتفكك الأحزاب وتناثرها، فعلت أصواتهم مطالبة زعماء الأحزاب بالاتحاد ونبذ الخلافات وضغطوا وبشدة في سبيل إنشاء ائتلاف يضم كل القوى الوطنية. وبالفعل نزل الزعماء لرغبة الشباب وتم تأليف ما يسمى بالجبهة الوطنية في ديسمبر عام ١٩٣٥، والتي تضم كل من حزب الوفد وحزب الأحرار الدستوريين والحزب الوطني وحزب الشعب وحزب الاتحاد، وفريق من المستقلين، والمعنية بالمطالبة بالاستقلال والدستور معًا[2].

ورحبت الرسوم الكاريكاتورية بالاتحاد الذي تم بين زعماء الأمة ونبذ الخلافات بينهم آملة أن يسفر هذا على نجاح المساعي المطالبة بالاستقلال والدستور! رسم رفقي في "روزاليوسف" "المصري أفندي" وهو يحمل علم مصر ويقود مسيرة الزعماء نحو تنفيذ مطالب الأمة. وفي كاريكاتير آخر، "المصري أفندي" محذرًا من الخروج عن الميثاق الوطني قائلًا: "وبعد هذا فلتنزل لعنة الله على من يخون الميثاق!" كما رسم رفقي تمثال "تآلف الزعماء" وفيه الزعماء يقفون مبتهجين بعد أن قضوا على أسد (بريطانيا) بغرس العلم المصري في جسده!

(٢) دكتور ضياء الدين الريس، المرجع السابق، ص: ١٢٢.
(٣) محمد زكي عبد القادر، "محنة الدستور ١٩٢٣-١٩٥٢"، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٣، ص: ٨٣.

واجتمع الزعماء أخيرا فى سبيل مصر ...

شكل ٤٠: واجتمع الزعماء أخيرًا في سبيل مصر:
(روزاليوسف، ٢٣ ديسمبر ١٩٣٥)

(النصرى النصرى) وبسم الله فلننزل لعنة الله على سم ثقوبه الميثاق

شكل ٤١: الميثاق!
(روزاليوسف، ٣٠ ديسمبر ١٩٣٥)

لوحة الأسبوع

رمز الوحدة المقدسة أو تمثال تآلف الزعماء

شكل ٤٢: رمز الوحدة المقدسة أو تمثال تآلف الزعماء!

(روزاليوسف، ٢٧ يناير ١٩٣٦)

قامت الجبهة في ١٢ ديسمبر بمطالبة الملك بإعادة الدستور، ومطالبة الحكومة البريطانية بتوقيع معاهدة بالنصوص التي انتهت إليها مفاوضات ١٩٣٠ (المعروفة بمشروع النحاس– هندرسون) بعد الاتفاق على البنود التي تخص السودان، وبالفعل استجاب الملك في نفس اليوم للمطلب الشعبي وأصدر أمرًا ملكيًا بإعادة دستور ١٩٢٣[١]، ليكون انتصارًا للأمة بشكل عام وانتصارًا للشباب بشكل خاص. ومن الطريف، أنه كان من ضمن من وقعوا على العريضة المطالبة بعودة الدستور إسماعيل صدقي شخصيًا[٢].

(١) عبد العظيم محمد رمضان، "تطور الحركة الوطنية في مصر من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٣٦"، المرجع السابق، ص: ٧٨٧.

(٢) عصام محمد سليمان، "أزمة الحكم في مصر (١٩٠٩-١٩٥٢)"، مطبعة الفكرة شارع منشأة الفاضل، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٥٤، ص: ٦٥.

زعلان ليه ؟ أهو كده زعلان

شكل ٤٣: زعلان ليه؟ أهو كده زعلان!

توفيق نسيم باشا: "أنا بس اللي بدي أعرفه أنت لسه زعلان ليه..رجعت لك الدستور وجبت قانون الانتخاب ... ليه زعلان

المصري أفندي: "واللي فات ده كان شوية ... لأ ... سيبني أنا زعلان!!"

(روزاليوسف، ٣٠ ديسمبر ١٩٣٥)

أكد ألكسندر صاروخان كيف أن سعد زغلول لم يمت في نظر المصريين وأن روحه ما زالت قادرة على حشد جموع الشعب في مظاهرات حاشدة ضد الإنجليز ومطالبة للاستقلال. فأحداث ثورة ١٩٣٥ أعادت إلى الأذهان ملابسات ثورة ١٩١٩. ففي كاريكاتير نشر بآخر ساعة، تبدو الدهشة على المندوب السامي البريطاني وهو يرى روح سعد زغلول مازالت قادرة على أن تقود المصريين في كفاحهم واحتجاجهم ضد الاحتلال البريطاني. فيسأله "المصري أفندي": "مالك ساكت كده ليه!...بتفكر في إيه...!" فيرد المندوب السامي: "بافكر لو كانوا اللي في لندن يقدروا يشوفوا المنظر ده معايا...كانوا يوفروا علي كتابة ألف تقرير وتقرير..."

شكل ٤٤: روح سعد زغلول!
(آخر ساعة، ١٣ يناير ١٩٣٥)

معاهدة الشرف والاستقلال:

كان عودة دستور ١٩٢٣ ووحدة الصف من الثمار التي جنتها ثورة الشباب، ليبقى الشق الثاني من المطالب الشعبية الخاص بالحصول على معاهدة تحقق لمصر الاستقلال.

في ذلك الوقت، تم تعيين أنتوني إيدن خلفًا لصمويل هور كوزير للخارجية، والذي أرسل في ٢٠ يناير ١٩٣٦ رد حكومته على المذكرة التي رفعتها له الجبهة الوطنية يتضمن قبول إنجلترا عقد الاتفاق مع مصر بشرطين، عدم التقيد بنصوص مشروع معاهدة ١٩٣٠، وضرورة الاتفاق أولًا على النصوص العسكرية في المعاهدة الجديدة كتمهيد للمفاوضات[1].

(١)عبد العظيم محمد رمضان، "تطور الحركة الوطنية في مصر من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٣٦"، المرجع السابق، ص: ٧٨٨.

شكل ٤٥: المعاهدة!

المصري أفندي: "يا جون بول يا خويا ... اذا كنت صحيح عاقل وبتفهم تعالى ساعدني في صيد السمكة [المعاهدة] دي ... واحنا الاتنين حنستفيد ... يالله يا شيخ ما تبقاش مغفل!!"

(روزاليوسف، ٣٠ ديسمبر ١٩٣٥)

لم يتردد الساسة طويلًا في الموافقة على شروط بريطانيا وإجراء مباحثات تمهيدية للاتفاق حول النصوص العسكرية، وبالفعل صدر مرسوم في ١٣ فبراير بتعيين هيئة رسمية لإجراء المفاوضات مع بريطانيا يرأسها مصطفى النحاس باشا وعدد من الأعضاء يمثلون جميع القوى السياسية الموجودة على الساحة، ماعدا الحزب الوطني الذي رفض المشاركة وقوفًا على مبدئه "لا مفاوضة إلا بعد الجلاء"(١).

عبر رفقي عن كم العقبات والقضايا التي تضعها بريطانيا أمام إتمام المعاهدة، فصور "المصري أفندي" على قمة جبل وأمامه كم من العوائق وضعت في طريقه إلى "المعاهدة" من "مناقشات مبدئية" و"المحالفة العسكرية" و"السودان" و"مفاوضات الحكومتين"، في نفس الوقت الذي يقف مقابلًا له "جون بول" يستعجله قائلًا: "أنا عاوز انتهي حالا يا مصري أفندي ... يالله بقى من فضلك وبلاش تعطيل ... تعالي بالعجل!" ليرد "المصري أفندي": "عجل في عينك ما تختشيش ... آجي ازاي والحواجز دي كلها في السكة وانت

(١)عبد العظيم محمد رمضان، "تطور الحركة الوطنية في مصر من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٣٦"، المرجع السابق، ص: ٧٩١.

اللي واضعها بأيدك!!!" كما رسم رفقي ضد التهديدات البريطانية وضد المحاولات البريطانية لفصل السودان عن مصر (انظر الرسوم التالية).

شكل ٤٦: المعاهدة أو سباق الحواجز!

(روزاليوسف، ٢٧ يناير ١٩٣٦)

شكل ٤٧: من الذي يهدد؟!!

جون بول: "يا مصري أفندي ... اذا لم تنجح المفاوضات هذه المرة فالحكومة البريطانية مضطرة لأن تعيد النظر في علاقتها مع مصر!!"

المصري أفندي: "يا خواجه جون بول ... اذا لم تنجح المفاوضات هذه المرة فان مصر –حكومة وشعبًا– مضطرة لأن تعيد النظر في علاقاتها مع حكومتك ... انت فاهم والا لأ!!"

(روزاليوسف، ٢٧ يناير ١٩٣٦)

شكل ٤٨: في طريق المفاوضات!

(المصري أفندي والسوداني أفندي)

"عهدي وعهدك في الهوى .. يا نعيش سوا يا نموت سوا ..!"

(روزاليوسف، ١٧ فبراير ١٩٣٦)

في ٢٦ أغسطس من عام ١٩٣٦، تم توقيع معاهدة بين بريطانيا وممثلها مايلز لامبسون ومصر وممثلها رئيس حزب الوفد ورئيس الوزراء مصطفى النحاس والتي لقبها بمعاهدة الشرف والاستقلال. كان من بنود المعاهدة التي يتحتم سريانها لعشرين عامًا أن تقوم بريطانيا بسحب قواتها من جميع أراضي مصر ما عدا عشرة الاف جندي تبقيهم على طول قناة السويس لحمايتها في وقت السلم. أما في وقت الحرب، لبريطانيا الحق في زيادة عدد جنودها وتحديد مواقع انتشارهم والحق في استخدام المطارات والموانئ والطرق المصرية وتتعهد الحكومة المصرية ببناء المعسكرات والطرق والكباري والسكك الحديدية اللازمة للقوات البريطانية. في مقابل مساعدة إنجلترا مصر على الدخول في عصبة الأمم وإلغاء الامتيازات الأجنبية، وتعود القوات المصرية للسودان الذي يبقى الوضع فيه على ماهو عليه حسب اتفاقية عام ١٨٩٩[١]. وبالفعل دخلت مصر عصبة الأمم عام ١٩٣٧ وتم إلغاء الامتيازات الأجنبية حسب قرار مؤتمر مونترو بسويسرا عام ١٩٣٩.

لعل حكومة النحاس رأت وقتها أن اختفاء وجه الجندي البريطاني من شوارع المحروسة هو بداية الطريق لجلاء القوات الإنجليزية تمامًا من مصر، إلا أن العديد من

() روبرت ستيفنس: Robert Stephens. (1971). Nasser: A political Biography. New York: Simon and Schuster.

المثقفين والمفكرين رأوا بأن هذه المعاهدة غير متكافئة وغير جيدة ولا تتفق مع الوعود لمصر في حقها في تقرير مصيرها بل هو مزيد من فرض السيطرة البريطانية على مصر. كما رأى المعارضون بأن في هذه المعاهدة إشارة بأن احكومة المصرية ستذعن لبريطانيا في وقت الحرب وهذا ما حدث في الحرب العالمية الثانية حيث أتاحت المعاهدة لبريطانيا الاستفادة من قواعدها في القناة. كما فشلت المعاهدة في التأكيد على مواضيع رئيسية مثل الشأن القومي والإصلاح الداخلي والتمثيل السياسي، فظهرت سلسلة من المظاهرات ضد الوفد وضد المعاهدة(٣).

وسجلت "روزاليوسف" رأيها في المعاهدة "النكبة" من خلال هذه المقطوعة الشعرية (غير موقعة) والمصاحبة لرسم كاريكاتوري!

الله يجازي السبب في «النكبة دي» بالذات!

الأوله آه . * والتانيه آه . . * والتالته آه . . . * الأوله آه طلبنا معاهده ومحالفه * والتانيه جيتم تقولوا إنجلترا حالفه * والتالته جانا الجواب بعد الضني مخالفه * الأوله آه طلبنا معاهده ومحالفه . تساعدكم * والتانيه جيتم تقولوا إنجلترا حالفه . تعاهدكم * والتالته جانا الجواب بعد الضني مخالفه . على إيدكم * الأوله آه طلبنا معاهده ومحالفه . تساعدكم . وفيها خلاص * التانيه جيتم تقولوا إنجلترا حالفه . تعاهدكم . على الاخلاص * والتالته جانا الجواب بعد الضنى مخالفه . على إيدكم . ورقبها رصص * آل إيه وافقتم وفاض عا الختام خطوات * منها السودان والنقط والارض والسموات * الله يجازي السبب في النكبه دي بالذات * الأوله آه . * التانيه آه . . * التالته آه . . .

شكل ٤٩: الله يجازي السبب في النكبة دي بالذات!

(روزاليوسف، ٢٧ يناير ١٩٣٦)

(٣) روبرت ستيفنس: المرجع السابق.

ويرجع حرص الإمبراطورية البريطانية على توقيع هذه المعاهدة هو قلقها من مدى موالاة مصر لها خاصة بعد أن تأزم الصراع الداخلي وتأججت شعلة المقاومة ضدها. وكيف لا تقلق ومصر تعد بالنسبة لها موقع استراتيجي حرج وتمثل قناة السويس لها صمام الأمان ومورد مالي مهم. كما استوعبت الإمبراطورية ايمان الشعب المصري بالمثل القائل "عدو عدوي صديقي" وهذا كفيل بأن يفتح الشعب المصري الباب لأعدائها من صغائر القوى العظمى آنذاك، خاصة بعد اعتداءات ايطاليا على مصالحها في أثيوبيا. ولهذا كان لابد من إبرام معاهدة مع مصر للتأكد من موالاتها لها في حالتي السلم والحرب وتتيح لها مزيد من السيطرة على قناة السويس وبشكل قانوني.

وفي عام ١٩٥١ وتحت حكومة أخرى برئاسة النحاس باشا، عرضت بريطانيا معاهدة جديدة تفيد بانسحاب الجنود البريطانيين بحلول عام ١٩٥٦ اذا وافقت مصر على عدد من الترتيبات الدفاعية مع بقاء السودان كموضوع منفصل عنها. العرض قابله رفض شعبي كامل وتم إلغاء المعاهدة في ٨ أكتوبر ١٩٥١ ونودي الملك فاروق ملكًا لمصر والسودان[١]. وقال النحاس باشا وقتها عبارته المشهورة: "من أجل مصر وقعت على المعاهدة ومن أجل مصر أعلن إلغائها".

ظهر في هذه الفترة أول رسام مصري وهو محمد عبد المنعم رخا، الذي سجن أربع سنوات بسبب كاريكاتير له في مجلة "المشهور" في الثلاثينات بتهمة "العيب في الذات الملكية"، وعمره آنذاك ٢٢ عامًا. يرى رخا بأنه بالرغم من بغضه للملك فؤاد وللسراي إلا أنه لم يرتكب ذلك "العيب"، ويعتقد أن ما حدث إنما مكيدة مدبرة من قبل إسماعيل صدقي انتقامًا منه بسبب رسومه التي تسخر منه وتنتقد سياساته[٢]. فقد كان الكاريكاتير "المشكلة" الذي سلمه رخا للطباعة يظهر فيه محرر ممسكًا بورقة ويسأله رئيس التحرير قائلًا: "تفتكر يكون إيه موضوع افتتاحية هذا العدد من المجلة؟" ليرد عليه رئيس التحرير قائلًا: "سيب السياسة..واكتب عن أسعار الفجل والكرات". إلا أن الكاريكاتير ظهر بعد الطبع وعلى الورقة التي بيد المحرر عبارة بخط دقيق (من الصعب رؤيتها بدون عدسة مكبرة) "فليسقط الملك" وإلى جانبها عبارة سباب تبدأ بكلمة "ابن..."[٣]!

(١) ديريك هوبوود: Derek Hopwood. (1993). Egypt: politics and society, 1945-1990. (3rd ed). London: Rout ledge.

(٢) سعيد أبو العينين، "رخا..فارس الكاريكاتير"، أخبار اليوم، الطبعة الأولى، ١٩٩٠، ص: ٤.

(٣) سعيد أبو العينين، المرجع السابق، ص: ٦٥.

وكان لرخا تجربة صحفية مبكرة، فقد أصدر مجلة فكاهية "اشمعنى" تعتمد في المقام الأول على كاريكاتيره البارع، إلا أنه لم يستمر لأكثر من عددين أو ثلاثة بعد أن ناء بأعبائها المالية.

في الكاريكاتير التالي يقارن رخا بين من يحتفلون بتوقيع المعاهدة ويقصد بهم الحكومة، وبين من قيدوا ببنود المعاهدة ويقصد بهم الشعب المصري. فقد صور حكومة النحاس باشا وهي تجوب الشوارع احتفالًا بتوقيع المعاهدة، في الوقت الذي يقف فيه "ابن البلد" (شخصية كاريكاتورية نتاج ابداع كل من رخا والكاتب الصحفي مصطفى أمين) مذهولًا ومتسائلًا عن مغزى الاحتفال وهو مكبلًا من إحدى رجليه بقيود المعاهدة.

شكل ٥٠: موكب الاستقلال!
الذين "وقعوا" المعاهدة....والذي "وقع" فيها!
(أخبار اليوم، ٢٥ أغسطس ١٩٤٥)

وصف رخا معاهدة ١٩٣٦ بالعبء لثقيل (شكل ٥١) الذي وقع على كاهل ابن البلد (الشعب المصري) الذي يعاني من حمله قائلًا: " أنا مستعد أشيلها فوق راسي...بس لو يشيلوا المواد الثقيلة اللى فيها!". وفي كاريكاتير آخر (شكل ٥٢) تأكيد على أن تغيير المعاهدة هو بالفعل ما يريده الشعب المصري.

حمل ثقيل

ابن البلد ـ انا مستعد اشيلها فوق راسي .. . بس لو يشيلوا المواد « الثقيلة اللي فيها !

شكل ٥١: حمل ثقيل!

(أخبار اليوم، ٢٢ سبتمبر ١٩٤٥)

هذا ما يريده الشعب !

شكل ٥٢: هذا ما يريده الشعب!

(أخبار اليوم، ١ سبتمبر ١٩٤٥)

لم تعط بنود المعاهدة بريطانيا الآمان الذي تنشده بل على العكس أثرت كثيرًا في علاقتها بالشعب المصري وتسببت في زيادة حدة المقاومة إلى الدرجة التي أصبح من الضروري جلاء بريطانيا تمامًا عن مصر للحفاظ على البقية الباقية من إمكانية حدوث تعاون مشترك بين البلدين في المستقبل. صور رخا "ابن البلد" وهو يحمل قرطاس (بنود المعاهدة) وقد تمزق من بين يديه ليسقط "الحلف العسكري" و"المصالح المشتركة"

و"الصداقة" و"التعاون" و"الإخلاص". فيستنجد صدقي بجون بول وهو يشير إلى قرطاس آخر (الجلاء) قائلًا: الحقنا بالقرطاس ده بقى.. قبل الحاجات المهمة ما تقع من ايده!

شكل ٥٣: بنود المعاهدة!

(أخبار اليوم، ٢٥ أغسطس ١٩٤٦)

ورسم زهدي العدوي عن المعاهدة في مشهدين: المشهد الأول وفيه مصر على هيئة رجل داخل كفن يمثل ورقة المعاهدة، وقد أحكم غلق الكفن عليه بشدة كل من جون بول ممثلًا لبريطانيا من ناحية ومصطفى النحاس مثلًا للحكومة المصرية وحزب الوفد من ناحية أخرى. والمشهد الثاني وفيه مصر وقد نهضت ممزقة المعاهدة ومواجهة بثقة وبلا خوف المدفعية البريطانية التي يقف خلفها جون بول خائفًا مترقبًا.

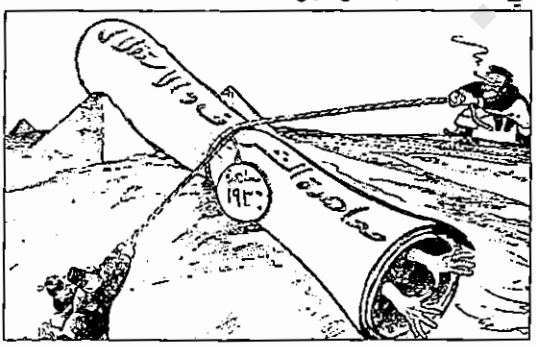

شكل ٥٤: معاهدة الشرف والاستقلال!

(زهدي العدوي، ١٩٥٢)[١]

(١) زهدي العدوي، قلم صلاح حافظ، "بداية المعركة"، دار الفن الحديث، ١٩٥٢، ص: ١٧٥.

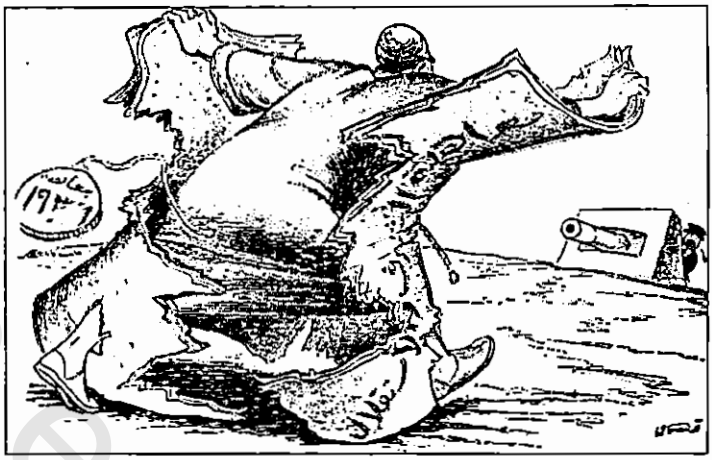

شكل ٥٥: معاهدة الشرف والاستقلال ١٢
(زهدي، ١٩٥٢)[١]

حادثة ٤ فبراير ١٩٤٢

اندلاع الحرب العالمية الثانية دفع بريطانيا إلى السعي بجدية لتشكيل حكومة في مصر تكون موالية لها ومعادية لكل من إيطاليا وألمانيا، خاصة بعد اندلاع مظاهرات في أرجاء المحروسة تدعو الجنرال روميل بدخول مصر عملًا بالمثل القائل: "عدو عدوي صديقي"، فلم يكن تعاطفًا مع المحور أو إيمانًا بالفاشية إنما كان لكراهية وشماتة في المحتلين الإنجليز. في الوقت نفسه ساءت بشدة علاقة الملك فاروق بالسفير البريطاني السير مايلز لامبسون الذي كان يستشيط غضبًا عندما يسخر منه فاروق وبناديه بالعربية "جاموس باشا"، الحنق الذي دفع لامبسون إلى مناقشة لندن في إمكانية عزل "الصبي" في وقت مبكر من عام ١٩٤٠[٢].

في ٤ فبراير من عام ١٩٤٢، لم يشأ السفير البريطاني أن يترك أي شيء للصدفة خاصة في ذروة مظاهرات الطلبة المؤيدة للألمان، وأراد التأكد من أن رئيس الوزراء الذي سيتم

(١) زهدي العدوي، المرجع السابق، ص: ١٧٧.

(٢) وليم ستاديام: William Stadiem. (2009). Too Rich: The high life and tragic Death of King Farouk. Parkway Publishing: London.

تعيينه من اختياره هو وليس من اختيار فاروق. ويعتقد الرئيس السابق محمد أنور السادات في كتابه "أسرار الثورة المصرية" بأن قصة المظاهرات التي سارت ليلًا تهتف "إلى الأمام يا روميل، التي اتخذتها بريطانيا ذريعة لحادثة ٤ فبراير كانت مدبرة لإيجاد "مبرر تستند إليه الدعاية البريطانية عندما يتخذ الإنجليز هذا الإجراء الشاذ في نوعه..وقد تحقق هذا الهدف، واستطاعت إنجلترا أن تفرض على الملك حكومة النحاس"[١].

يذكر المؤرخ محمد أنيس أن فاروق كان قد اجتمع بزعماء الأحزاب في يوم سابق في محاولة لتأليف وزارة ائتلافية برئاسة مصطفى النحاس باشا تضمن مشاركة الوفد ولكن في نفس الوقت عدم انفراده بالحكم، إلا النحاس رفض تشكيل إلا وزارة وفدية. ووصل أمر الاجتماع إلى مسامع لامبسون فأبلغ رئيس الديوان الملكي أحمد حسنين باشا برفض إنجلترا وزارة ائتلافية ورغبتها في أن يؤلف النحاس وزارة وفدية بحتة. وسلم السفير البريطاني رئيس الديوان إنذارًا كان نصه: "إذا لم أعلم قبل الساعة السادسة مساء أن النحاس باشا قد دعي لتأليف وزارة، فإن الملك فاروق يجب أن يتحمل تبعة ما يحدث"[٢].

نتيجة لذلك دعا فاروق الزعماء مرة أخرى وأطلعهم على فحوى الإنذار، ليحتدم النقاش بينهم والاقتراحات ويتمسك النحاس برفضه تشكيل وزارة قومية، لينتهي الاجتماع بموافقة الزعماء بالإجماع بتقديم قرارًا مكتوبًا موضحًا فيه أن الإنذار يتنافى مع استقلال مصر وسيادتها، والذي تم توصيله بالفعل بواسطة أحمد حسنين إلى السفارة، ليكون جواب السفير عليه: "سأوافيكم برأيي في الساعة التاسعة". وبالفعل وقبل الساعة التاسعة بقليل كان السفير قد حضر إلى قصر فاروق، ولكن ليس بمفرده إنما في صحبته جنرال ستون قائد القوات البريطانية في مصر وعدد من الدبابات والعربات المصفحة التي حاصرت القصر من جميع الجهات، ليقدم لفاروق صك التنازل عن العرش[٣].

وأخيرًا حانت اللحظة التي تمناها لامبسون، فقد انعكست الأدوار وسخر لامبسون

---

(١) أنور السادات، "أسرار الثورة المصرية: بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية"، تقديم جمال عبد الناصر، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥، ص: ٦٩.

(٢)الدكتور محمد انيس، "٤ فبراير ١٩٤٢: في تاريخ مصر السياسي"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٢، ص: ١٣.

(٣) الدكتور محمد انيس، المرجع السابق، ص: ١٢-١٦.

المرة من فاروق، واستوعب فاروق كيف تكون بريطانيا وهي تكشر عن أنيابها، وبالتالي لم يكن أمامه إلا أن يرضخ لطلب لامبسون ويصدر قرارًا بتشكيل حكومة وفدية برئاسة مصطفي النحاس. هذه الحادثة استفزت المصريين وكانت دليلًا ماديًا على مدى النفوذ البريطاني ومدى ضعف الملك.

لا أحد يستطيع أن يجزم لماذا اختارت بريطانيا النحاس تحديدًا لرئاسة الحكومة مع إنه وفدي. هناك من يرجح ارتياح البريطانيون الشخصي في التعامل معه بعد أن أسفرت المفاوضات معه عن توقيع معاهدة ٣٦، وهناك من يرجح أنه بحكم كونه زعيم حزب الأغلبيه فإنه قادر على ضمان استقرار الأمور ووضع حد لأي اضطرابات قد تعوق الجهود الحربية للقوات البريطانية. لكن لم يكن هذا مبررًا كافيًا لدى الرأي العام المصري. بل على العكس، بعد أن شكل النحاس الحكومة تحت التهديد البريطاني، فقد الوفد الكثير من مصداقيته وأصبح يرى على أنه حزب موالي للإنجليز.

وقدم السادات تحليلًا آخر لسبب إقدام إنجلترا على فرض حكومة النحاس بهذا الشكل المذل للملك، وهو أن إنجلترا كانت ترى أن هناك تقاربًا بين الملك وشعبه من ناحية وبين الملك والجيش من ناحية أخرى، "فقد كان الملك في نظر الشعب وفي نظر الجيش أيضًا.. شابًا وطنيًا، وكان محبوبًا..ورأت إنجلترا أن هذا التقارب سيوجد جبهة متحدة من الجيش والشعب، فأرادت أن تحطم هذه الجبهة، وأن تعزل الجيش عن الشعب، وكان يوم ٤ فبراير هو الوسيلة لذلك..فقد صممت إنجلترا فيه على تكليف النحاس –زعيم الشعب– بتشكيل الوزارة، فأصبح الشعب بذلك في ناحية، والملك والجيش في الناحية الأخرى..وبدأت إنجلترا بعد هذا تقيم سياستها على أساس عزل الجيش عزلًا كاملًا عن الشعب بتبغيضه إليه، وإشعار الشعب بأن جيشه هو السوط الذي سيلهب ظهره بإسم الملك" (١).

ويرى محمد أنيس أن سبب تمسك النحاس بالوزارة الوفدية ورفضه فكرة الوزارة القومية يرجع إلى تجربته المريرة في الوزارة القومية عام ١٩٢٨، والتي كانت تعج بالمؤامرات وتكتلات الأحزاب داخل الوزارة وضده، ونتيجة لذلك اقترنت سياسة الوفد بعد ١٩٢٨ برفض فكرة الوزارة القومية(٢).

(١) أنور السادات، "أسرار الثورة المصرية: بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية"، المرجع السابق، ص: ٧٠-٧١.

(٢) الدكتور محمد انيس، "٤ فبراير ١٩٤٢: في تاريخ مصر السياسي"، المرجع السابق، ص: ٢٧.

ويعتقد بعض المفكرين أنه كان على النحاس رفض العرض البريطاني حتى وإن أمره الملك بذلك. فهم يرون أن موافقة النحاس على العرض وهو يعلم مسبقًا أنه تحت تهديد بريطاني كان بمثابة خيانة.

وعكست العديد من الرسوم الكاريكاتورية هذا المغزى، مع العلم أنه لم ينشر أي كاريكاتير يشير إلى حادثة فبراير في وقت حدوثها. فقد ظهرت الرسوم تتابعًا بعد ستين من الحدث وهي عمر وزارة النحاس التي انتهت في أكتوبر ١٩٤٤ والتي خلفها حكومة أحمد ماهر باشا الذي أغتيل في ٢٤ فبراير من عام ١٩٤٥. وقد نشرت الرسوم في أخبار اليوم التي تتبع سياسة معادية للوفد. ويرجع عدم نشر الرسوم التي تتناول حادثة ٤ فبراير في الغالب إلى الأحكام العرفية التي فرضت مع إعلان الحرب العالمية الثانية في سبتمبر ١٩٣٩ وحتى عام ١٩٤٥.

في الكاريكاتير التالي، يقود النحاس دبابة إنجليزية ويحاصر قصر عابدين ليصادر منصب رئيس الوزراء. وفي كاريكاتير آخر (شكل ٥٦)، "النفوذ البريطاني" على هيئة حذاء كبير يدوس على جسد النحاس وهو مستلقي نائمًا غير عابئ بما يدور حوله ويحلم بدبابة إنجليزية ستحقق له طموحاته.

ذكرى ٤ فبراير
صورة فنية وضعها رسام عالمي ، تصور حادثة ٤ فبراير ، وهي تنشر اليوم لأول مرة

شكل ٥٦: ذكرى ٤ فبراير !!
صورة فنية وضعها رسام عالمي، تصور حادثة ٤ فبراير. وهي تنشر اليوم لأول مرة.
(أخبار اليوم، ١٧ نوفمبر ١٩٤٥)

: أعرف النحاس باشا انه لا مفر أن الدبابات حاصرت قصر عابدين في ٤ فبراير قال المصور)
الرجل الذى نام فى ٤ فبراير سنة١٩٤٢ ولم يستيقظ الى الآن!

شكل ٥٧: ذكرى ٤ فبراير ٢!
(أخبار اليوم، ٦ ديسمبر ١٩٤٧)

وأجد أن من أبدع ما رسم رخا لهذه المناسبة لوحة كاريكاتورية (شكل ٥٦) فنية فيها يتمايل جسد النحاس باشا ويتلوى ليشكل كلمة "٤ فبراير"، في حين تشكل الدبابات البريطانية إيطار اللوحة.

النحاس باشا فى محكمة الجنايات
الرجل الذى اراد ان يخفى ٤فبراير

شكل ٥٨: النحاس باشا في محكمة الجنايات!
الرجل الذي أراد أن يخفي ٤ فبراير
(الأخبار، ٦ ديسمبر ١٩٤٧)

وفي كاريكاتير آخر، جون بول يحاول إقناع "ابن البلد" أن ينسى حادثة فبراير ويبدءا معًا صفحة جديدة، في حين يصر "ابن البلد" على عدم نسيانها طالما تتواجد العسكرية البريطانية بمصر.

الصفحة السوداء
جون بول - ماتنسى الصفحة دى بقى !
ابن البلد - ما اقدرش انساها مادام فى مصر دبابة انجليزية او عسكرى انجليزى

شكل ٥٩: الصفحة السوداء!

جون بول: ماتنسى الصفحة دي بقى!

ابن البلد: ما أقدرش أنساها مادام في مصر دبابة إنجليزية أو عسكري إنجليزي!

(أخبار اليوم، ٢٤ فبراير ١٩٤٥)

الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩- ١٩٤٥):

بعد قيام الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٣٩ بين دول الحلفاء (إنجلترا وفرنسا وروسيا والولايات المتحدة) وبين دول المحور (ألمانيا وايطاليا واليابان) توترت الأجواء داخل مصر من جراء الحرب، وفرضت رقابة صارمة على الصحف وأعلنت الأحكام العرفية وأتخذت بريطانيا التدابير اللازمة لتأمن موالاة مصر لها وكان آخرها حادثة ٤ فبراير.

عمليًا، شاركت مصر في الحرب ضد الألمان منذ سبتمبر ١٩٣٦، فقد كانت الأراضي المصرية والمطارات والمستودعات تستخدم لصالح بريطانيا. لكن رسميًا، لم تعلن مصر الحرب ضد دول المحور حتى ٢٤ فبراير من عام ١٩٤٥. وكنتيجة لذلك، بعد انتهاء الحرب استطاعت مصر أن تشارك في مؤتمر السلام الذي انعقد في سان فرانسيسكو في ٢٥ إبريل من عام ١٩٤٥، آملة في تحقيق حلم الاستقلال التام.

وقد كانت الرسوم الكاريكاتورية وقتها ترقب بحرص تطورات الحرب العالمية الثانية، وبعد انتهاء الحرب، كانت تركز على مسألة الاستقلال. فقد أكد رخا في إحدى

رسومه بأنه بعد انتهاء الحرب لم يبقى لمصر إلا عدو واحد وهو الاستعمار. وفي كاريكاتير آخر، يؤكد "ابن البلد" أن الحرية باتت شغل شاغل المصريين الآن قائلًا لرئيس وزراء بريطانيا ونستون تشرشل: "عجبني صوت أجراس النصر...لكن يعجبني أكثر أن أسمع أجراس الحرية كمان!"

والآن بقى عدو واحد

شكل ٦٠: والآن بقي عدو واحد!

(أخبار اليوم، ١٨ أغسطس ١٩٤٥)

ابن البلد لستر تشرشل - عجبني صوت اجراس النصر ... لكن يعجبني اكثر ان اسمع اجراس الحرية كمان ...

شكل ٦١: أجراس الحرية!

(أخبار اليوم، ١٢ مايو ١٩٤٥)

وفي كاريكاتير آخر، ينصح "ابن البلد" القادة الثلاثة (ستالين وروزفلت وتشرشل) بأن ينهوا الاحتلال أولًا اذا كانوا يعنون فعلًا بالسلام مع الدول العربية. ويستغرب "ابن البلد" في كاريكاتير آخر هيمنة القادة الثلاثة على العالم. ويؤكد "ابن البلد" في كاريكاتير آخر حقيقة أن بريطانيا لا تهتم إلا بمصلحتها ولا يعنيها مصلحة مصر. ففي الكاريكاتير، "ابن البلد" و"جون بول" ينظران إلى سبورة كتب عليها بخط كبير "المصالح البريطانية" وتحتها بخط صغير جدًا "المصالح المصرية" و"جون بول" يقول: "أنا موش قادر أشوف السطر الثاني لأنه صغير!" فيرد عليه "ابن البلد" مهددًا: "ماهو لو ما شفتش انت السطر الثاني ... ما أقدرش أنا أشوف السطر الأول!"

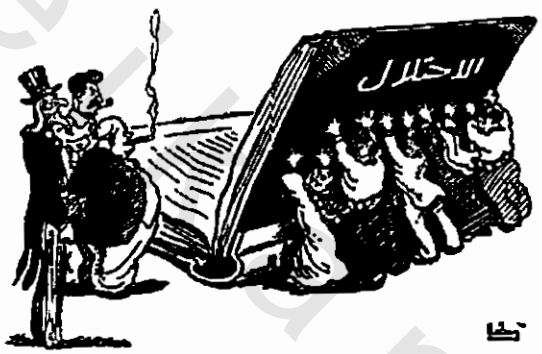

ابن البلد ـ اذا كنتم عاوزين تفتحوا صفحة جديدة للسلام ..
لازم تساعدونا نقفل الكتاب ده !

شكل ٦٢: الاحتلال!

ابن البلد: إذا كنتم عاوزين تفتحوا صفحة جديدة للسلام...لازم تساعدونا نقفل الكتاب ده!

(أخبار اليوم، ٥ مايو ١٩٤٥)

بمناسبة اجتماع الاقطاب الثلاثة

ابن البلد ـ قريبه .. الثلاثة دول ماليين الدنيا كلها .. وموش سايبين لحد مطرح فيها ! ..

شكل ٦٣: الاقطاب الثلاثة!

(أخبار اليوم – ٢ يونيو ١٩٤٥)

جون بول ـ أنا موش قادر أشوف السطر التاني لانه صغير !

ابن البلد ـ ماهو لو ماشفتش انت السطر التاني ... ما أقدرش أنا أشوف السطر الاول !

شكل ٦٤: المصالح البريطانية!

"جون بول– أنا موش قادر أشوف السطر الثاني لانه صغير!"

"ابن البلد– ماهو لو ما شفتش انت السطر الثاني...ما أقدرش أنا أشوف السطر الاول!"

(أخبار اليوم، ١٤ يوليو ١٩٤٥)

انتهت الحرب بسقوط القنابل الذرية على هيروشيما وناجاساكي من قبل الولايات المتحدة والتي بها غيرت خريطة العالم وأنشأت نظامًا عالميًا جديدًا. وفي ٢٥ ابريل من عام ١٩٤٥، انعقد مؤتمر سان فرانسيسكو بحضور مندوبي ٥٠ دولة لإنشاء منظمة الأمم المتحدة ذات شرعية تؤهلها حل النزاعات سلميًا والمساعدة في حل المشاكل الأمنية والاقتصادية والاجتماعية العالمية. في الكاريكاتير التالي، "ابن البلد" ممثلًا لمصر في طريقه لمؤتمر السلام وهو حاملًا على عاتقه المطالب الوطنية ومطالب الدول العربية الأخرى في تحقيق استقلالها. وفي كاريكاتير آخر، يؤكد "ابن البلد" بأنه لن يحدث سلام شامل إذا تم التغاضي عن مطالب الدول الصغيرة. وفي كاريكاتير آخر، "ابن البلد" ممثلا هذه المرة للدول الصغيرة في معضلة كبيرة، فهو عليه أن يختار بين القنبلة الذرية أو القبول بميثاق سان فرانسيسكو.

شكل ٦٥: المطالب الوطنية!

(أخبار اليوم – ١٠ مارس ١٩٤٥)

شكل ٦٦: استقلال الشعوب الصغيرة!

(أخبار اليوم – ١٤ ابريل ١٩٤٥)

شكل ٦٧: الدول الصغيرة بين نارين!

(أخبار اليوم، ٢٥ أغسطس ١٩٤٥)

وأعلن الرئيس الأمريكي فرنكلين روزفلت في خطاب أمام الكونجرس في يناير عام ١٩٤١ الحريات الأربع كقاعدة أساسية لسياسة أمريكا الخارجية وهي: حرية الرأي والتعبير وحرية التدين والتحرر من الحاجة والتحرر من الخوف. في الكاريكاتير التالي، "ابن البلد"، ممثلًا لمصر، مع بقية الدول العربية وتشمل المملكة العربية السعودية ولبنان وسوريا والعراق يرفضون ركوب حافلة تتبع الوصايا الدولية التي أعلنها مؤتمر سان فرانسيسكو ومصرين على انتظار حافلة الحريات الأربعة.

شكل ٦٨: الحريات الأربعة!

"الكمساري: فيه محلات كتير هنا.."

"المنتظرون: لا ياعم...احنا ما نركبش غير نمرة "٤

(أخبار اليوم، ١٢ مايو ١٩٤٥)

شكل ٦٩: الوصايا الدولية!

ابن البلد – الدول العربية عاوزه ست شقق يطلو ' على الناحية دي

(أخبار اليوم – ٢٨ أبريل ١٩٤٥)

حرب فلسطين ١٩٤٨:

من يتبصر في دهاليز حرب فلسطين ١٩٤٨ يستوعب ما آل إليه العرب الآن ويجده منطقيًا، فلقد اختارت بعض الحكومات العربية الخيانة والعمالة للإنجليز وباعوا القضية الفلسطينية من قبل أن تبدأ انتصارًا لمصالحهم الشخصية وأطماعهم التوسعية. فلقد وقعت أرض فلسطين بين براثن الأطماع الاستعمارية و لتنظيمات الصهيونية والمصالح الشخصية لبعض ملوك وأمراء العرب.

وضعت الدول العربية التي تتبع الدولة العثمانية آمالًا كبيرة على بريطانيا لنيل حريتها، إلا أنه فيما يبدو قد بالغوا في الوثوق بها، فوفقًا للمؤرخ عبد الرحمن الرافعي، أخلفت بريطانيا وعودها التي بذلتها وتعهدها باستقلال البلاد العربية مقابل إعلانها الثورة على الدولة العثمانية(١).

ويضيف المؤرخ الإسرائيلي إيفي شليم، أستاذ العلاقات الدولية بجامعة إكسفورد، بأن الملك الحسين بن علي (١٨٥٢-١٩٣١) قد تآمر بحذر من أجل تحقيق طموحه لإقامة مملكته الهاشمية، فقد تفاوض في هذا الشأن علنًا مع الأتراك وسرًا مع بريطانيا، وبسبب رفض الأتراك مطالبه التوسعية جعله يميل أكثر في اتجاه بريطانيا. وباندلاع الحرب العالمية الأولى في أغسطس ١٩١٤ أصبحت بريطانيا أكثر تقبلا لعروضه(٢).

(١) عبد الرحمن الرافعي، "ثورة ٢٣ يوليو ١٩٢٥: تاريخنا القومي في سبع سنوات ١٩٥٢-١٩٥٩"، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٩، ص: ٣٩٩.

(٢) ايفي شليم:

Avi Shlaim. (2008). Lion of Jordan: The Life of King Hussein In War And Peace. New York: Alfred A. Knopf.

ومع انتهاء الحرب العالمية الأولى كانت الإمبراطورية العثمانية قد فقدت جميع مقاطعاتها العربية في حين فرض الأمراء الهاشميين أنفسهم متحدثين بلسان القضية العربية القومية في مؤتمر فرساي للسلام عام ١٩١٩، وذلك لمساهمتهم في المجهود الحربي لصالح قوات التحالف ضد الأتراك، وقد وعدتهم بريطانيا "سرًا" بدعم استقلال الدول العربية لتكون تحت أمرتهم. ولم يستطع الحسين الصبر حتى يرى حلم مملكته الهاشمية_ والتي من المفترض أن تشمل شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق_ أمامه حقيقة فأعلن نفسه "ملك البلدان العربية". في البداية رفضت بريطانيا الاعتراف به ثم اعترفت به كملك للحجاز فقط[١].

إلا أن الرياح أتت بما لاتشتهي السفن، فقد وقعت بريطانيا وفرنسا اتفاقية سايكس بيكو Sykes-Picot سرًا في مايو ١٩١٦، والتي مفادها تقسيم الهلال الخصيب الذي يضم سوريا الحديثة ولبنان والعراق والأردن وفلسطين إلى مناطق ذو نفوذ بريطاني وفرنسي، وهي البلاد التي وعدت بريطانيا بإعطائها لحسين. كما وعدت الحكومة البريطانية اليهود "علنًا" على لسان وزير خارجيتها آنذاك اللورد بلفور عام ١٩١٧ بتمكينهم بإقامة وطن قومي لهم على أرض فلسطين فيما يسمى بوعد بلفور، لنجد أن أرض فلسطين قد وعدت مرتين من قبل بريطانيا[٢].

عندما وصل هذا الإعلان إلى مسامع الحسين انزعج بشدة وطلب من بريطانيا توضيح معناه، فأكدت بريطانيا في رسالة وجهت له تأكيد الحلفاء بإعطاء العرب فرصة كاملة لتشكيل وطن قومي لهم يكون هو ملكًا عليه. فتوهم حسين بأن استيطان اليهود في فلسطين لن يتعارض مع استقلال العرب في هذا البلد الذي سيصبح تحت امرته. إلا أن موقفه ما لبث أن تغير مع رفض بريطانيا بالاعتراف باستقلال العرب في فلسطين، وهنا شعر الحسين بالخيانة وأيقن أن بريطانيا قد خرقت عهدها معه[٣].

وتم انشاء جامعة الدول العربية بموجب بروتوكول الإسكندرية في ٧ أكتوبر ١٩٤٤، وتم إقرار ميثاق الجامعة والتوقيع عليه في ٢٢ مارس ١٩٤٥، والذي يعتبر يوم الاحتفال بالعيد السنوي للجامعة، ومع ذلك لم تعمل وقتئذ عملًا جديًا في تحقيق الوحدة أو الاتحاد بين العرب، "وكانت بريطانيا لا تفتأ تفرق بينهم بالمؤامرات والدسائس، معتمدة على ولاء الحكام من عملائها وأنصارها"[٤].

(١) ايفي شليم، المرجع السابق.
(٢) ايفي شليم، المرجع السابق.
(٣) ايفي شليم، المرجع السابق.
(٤) عبد الرحمن الرافعي، "ثورة ٢٣ يوليو ١٩٢٥: تاريخنا القومي في سبع سنوات ١٩٥٢-١٩٥٩"، المرجع السابق، ص: ٤٠٢.

والحق أن جامعة الدول العربية وقت انشائها كانت تجوب الدول العربية التوترات والانشقاقات والصراعات سواء ضد المحتل الأجنبي أو ضد بعضها البعض، ورأت الجامعة مبكرًا انشقاقًا في صفوفها، فقد شكلت مصر وسوريا والمملكة العربية السعودية محورًا يستهدف حصر الهاشميين والحيلولة دون نجاحهم ككتلة إقليمية في المشرق العربي، وبالتالي عملوا على عرقلة الملك عبد الله عن تحقيق حلمه، مشروع سوريا الكبرى *، كما وقفوا كحلف ضد العراق الذي كان يحكمه الهاشميون والذي كان يسعى هو الآخر إلى تحقيق مشروع الهلال الخصيب، وبالتالي كان لا يعترض كثيرًا على مخططات الملك عبد الله[1].

وقد أدرج قرار خاص بفلسطين في بروتوكول الإسكندرية وكان نصه: "ترى اللجنة أن فلسطين ركن مهم من أركان البلاد العربية. كما ترى اللجنة أن التعهدات التي ارتبطت بها الدولة البريطانية والتي تقضي بوقف الهجرة اليهودية والمحافظة على الأراضي العربية والوصول إلى استقلال فلسطين هي من حقوق العرب الثابتة التي تكون المبادرة إلى تنفيذها خطوة نحو الهدف المطلوب ونحو استتاب السلم وتحقيق الاستقرار. وتعلن اللجنة انها ليست أقل ألما من أحد لما أصاب اليهود في أوروبا من الويلات والآلام على يد بعض الدول الأوروبية الدكتاتورية. ولكن لا يجب أن يخلط بين مسألة هؤلاء اليهود وبين الصهيونية -إذ ليس أشد ظلمًا وعدوانًا من أن تحل مسألة يهود أوروبا بظلم آخر يقع على عرب فلسطين على اختلاف أديانهم"[2].

وفاق العرب على كابوس حقيقي في ٢٩ نوفمبر من عام ١٩٤٧، قبل انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين، عندما وافقت الجمعية العامة بالأمم المتحدة على قرار تقسيم فلسطين إلى دولة يهودية وأخرى عربية كمحاولة حسب زعمها لإنهاء النزاع العربي الصهيوني. ويبدو أن القرار كان معنيًا فقط بإنشاء دولة صهيونية أما مسألة "التقسيم" هذه فما هي إلا أكليشيهات عملت ككبسولة لامتصاص الغضب العربي المتوقع. وبالفعل قوبل قرار التقسيم بغليان عربي شديد ونية حاسمة بضرورة القضاء على العصابات الصهيونية المسلحة للحفاظ على وحدة واستقلال فلسطين.

---

* يتضمن مشروع سوريا الكبرى تحقيق الاتحاد بين شرق الأردن وسوريا ليكون تحت حكم الملك عبد الله، هذا بالإضافة إلى خلق نوع من التعاون المشترك بين الدولة الجديدة والعراق، كما في حالة تقسيم فلسطين يضم القسم العربي منها إلى الدولة الجديدة، أنظر محمد فيصل عبد المنعم، "أسرار ١٩٤٨"، ص: ١٦٢.

(١) د. احمد عبد الرحيم مصطفى، "بريطانيا وفلسطين ١٩٤٥ - ١٩٤٩: دراسة وثائقية"، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٦، ص: ١١١-١١٢.

(٢) د. احمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص: ٢٠١.

-صدر القرار بإتفاق ٢٣ دولة ضد ١٣ دولة وامتناع ١٠ عن الاقتراع. وكانت الدول التي وافقت على التقسيم هي "الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة وفرنسا واستراليا وبلجيكا وهولندا والسويد والنرويج وبولندا وتشيكوسلوفاكيا والدانمرك ولوكسمبورج وأوكرانيا وروسيا البيضاء وبوليفيا والبرازيل وكندا وكوستاريكا وسان دومنجو وأوكوادور وجواتيمالا وهايتي وإسلندا وليبريا ونيوزيلندا ونيكاراجوا وبناما وباراجواي وبيرو والفلبين وجنوب أفريقيا وأرجواي وفنزويلا..وعارض في التقسيم كل من مصر وأفغانستان والعراق وسورية ولبنان وكوبا واليونان والهند وباكستان وإيران والمملكة العربية السعودية وتركيا واليمن..وامتنع عن التصويت كل من بريطانيا والصين وشيلي والأرجنتين وكولومبيا وسلفادور وأثيوبيا وهندوراس والمكسيك ويوغوسلافيا"[١].

ونلاحظ امتناع بريطانيا عن التصويت لاثبات حيادها تجاه قرار التقسيم، وهذا يبدو غير منطقي ومخالف للواقع بأن الوصول إلى هذا القرار كان نتيجة لمساعيها منذ البداية وقد عبدت له الطريق. والحق أن موقف بريطانيا من القضية الفلسطينية شائك منذ البداية، فقد رأى عدد من المؤرخين سواء العرب أو اليهود أن بريطانيا قد تآمرت لدخول العرب في حرب مع اليهود، وفي أحيان أخرى كانت تتآمر على الطرفين (اليهود والعرب)، ففيما يبدو أن السياسة البريطانية كانت تتأرجح نتيجة لحرصها على صداقة العرب حفاظًا على مصالحها الإقليمية دون نية حقيقية لاحتواء الموقف أو الحفاظ على سيادة فلسطين ولعله السبب وراء انهائها الانتداب بساعات قبل إعلان دولة إسرائيل، لتكون في منأى من تحمل مسؤولية "رسمية" فيما يحدث خاصة أمام الرأي العام العربي.

ولكن ما لا يدع مجالًا للشك أن بريطانيا كانت مطلعة على امكانيات الجيش المصري على وجه خاص وتعلم جيدًا أنه لو دخل الحرب فسيخسرها لا محالة، ومع ذلك كان تسعى جاهدة إلى اقحامه في الحرب. فوفقًا لمحمد فيصل عبد المنعم أن تشايلان أندورز، القائم بأعمال السفارة البريطانية في القاهرة، قد توجه قبل حرب فلسطين بأشهر قليلة إلى القصر الملكي مؤكدًا أن بريطانيا ستعد الجيش المصري بما يحتاج من سلاح وقال: "إن الحكومة البريطانية يسرها أن يقوم الجيش المصري بتلقين العصابات الإرهابية الإسرائيلية درسًا في الأدب بعد كل الإهانات التي ألحقتها هذه العصابات بالقوات البريطانية"[٢].

(١) عبد الرحمن الرافعي، "ثورة ٢٣ يوليو ١٩٢٥: تاريخنا القومي في سبع سنوات ١٩٥٢-١٩٥٩"، ص: ٤٠٢.

(٢) محمد فيصل عبد المنعم، "أسرار ١٩٤٨"، تقديم أنيس منصور، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ١٩٦٨، ص: ١٩٧.

وكما هي العادة، علق العرب آمالًا عريضة على المجتمع الدولي وخاصة الولايات المتحدة لحل النزاع. وبدت التصريحات الأولية لترومان الرئيس السابق للولايات المتحدة رافضة لقرار التقسيم ولكن ما لبث أن عدل عن رأيه وأيد القرار. والأبيات التالية هي من قصيدة غير موقعة تعلق على تذبذب موقف الولايات المتحدة الأمريكية تجاه قرار تقسيم فلسطين، نشرت في "آخر ساعة" في ٣١ مارس من عام ١٩٤٨:

يا مقسم القدس بالشوكة وبالسكين
عاطى السقط للعرب والفشة والمصارين
وعاطى باقى الدبيحة كلها لكوهين
قول لي انت ويّا العرب يا شيخ في محتهم
ولا انت ويّا اليهود؟.. ولا مع الاتنين!؟

يصف صاروخان في رسومه قرار التقسيم بالصوري ويرى أن الهدف الأساسي من التقسيم هو إنشاء دولة يهودية وأنه لن يبقى شيء للفلسطينيين ليقيموا عليه دولتهم. ففي الكاريكاتير التالي، يصور صاروخان رجلًا عربيًا (فلسطين) طريح الفراش ويرتدي في إحدى رجليه فردة حذاء، بينما يجر الفراش مسرعًا صهيوني طويل القامة ذو أنف معقوف وله لحية سوداء طويلة ويرتدي قبعة ومعطف أسود، ذلك الزي الذي كان مطابقًا للشكل الذي يعرف به أعضاء الحركة الصهيونية. وفي الكاريكاتير مجلس الأمن يحاول اقناع الرجل العربي (العرب) بالاكتفاء بفردة الحذاء الأخرى بينما الرئيس الأمريكي ترومان يعترض قائلًا: "حرام عليك...اعطي اليهود حته كمان".

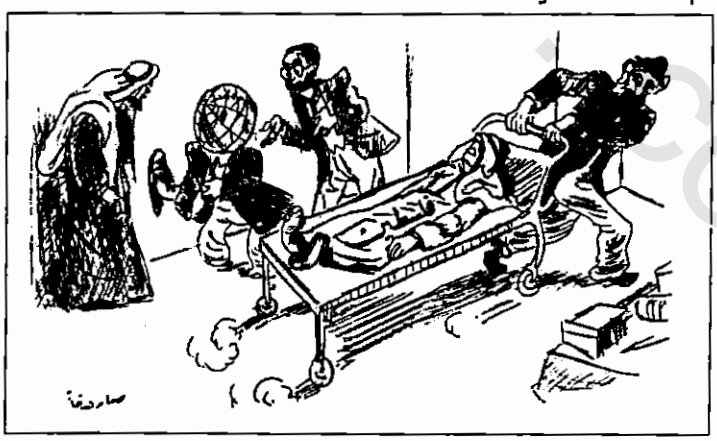

شكل ٧٠: تقسيم فلسطين!
(أخبار اليوم، ٢٧ فبراير ١٩٤٨)

استشاط غضب الشعوب العربية ونفذ صبرها وهي تستمع إلى خطب زعمائها الرنانة الملغمة بالتهديد والوعيد والرافضة لمشروع تقسيم فلسطين شكلًا وموضوعًا، وإيمانهم بأن تحرير فلسطين من العصابات الصهيونية لا يمكن أن يتم إلا بالقوة وإن كان هذا يستحيل من الناحية العملية قبل انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين. فنرى "المصري أفندي" في حالة "زهق" يخاطب زعماء الدول العربية الست (مصر وسوريا ولبنان والمملكة العربية السعودية وشرق الأردن والعراق) التي أخذت على عاتقها تحرير فلسطين قائلًا: "انتم اتكلمتم كفاية..سيبوا ده يتكلم شوية" مشيرًا إلى مدفع. وفي كاريكاتير آخر، محمد الحسيني مفتي فلسطين آنذاك يطمئن شعبه قائلًا: "طمنوا أهل فلسطين ... وصلتنا من الدول العربية إمدادات هائلة .. فيه لغاية دلوقتي ٣٠ خطبة و٤٠ مقالة والباقي في الطريق."

وفي كاريكاتير آخر بعنوان "حركة الانقضاض قادمة" لصاروخان، يد على وشك الانقضاض على صهيوني جالس في هدفها يرتجف خوفًا. تجسد اليد الست دول عربية التي حملت على عاتقها تحرير فلسطين في إشارة إلى أن التخلص من الصهيونيين أصبح وشيكًا! ومن الجدير بالذكر أن هذا الكاريكاتير قد نشر في آخر ساعة في ١٢ مايو عام ١٩٤٨ أي قبل يومين فقط من إعلان قيام دولة إسرائيل وقيام حرب ٤٨.

وتم إعلان قيام دولة إسرائيل بعد سويعات من انتهاء الانتداب البريطاني في فلسطين في ١٤ مايو ١٩٤٨، بعد أن أمنت بريطانيا لإسرائيل المكان وبهذا تكون قد أوفت بوعدها لها. وأعتبر العرب هذا الإعلان تحديًا سافرًا لهم فحشدوا جيوشهم وأعلنوا قيام حرب فلسطين. وبالفعل تحركت ست جيوش عربية في ١٥ مايو ١٩٤٨ صوب فلسطين لطرد الصهيونيين. ولكن لابد ألا نغفل حقيقة أن الجيش المصري لم يكن معدًا للحرب ولم يكن له خطة، وكان هذا هو الحال بالنسبة لبقية الجيوش العربية، وأن الجيش المصري ما لبث وأن وجد نفسه يكاد يحارب وحده.

شكل ٧١: حرب فلسطين ١!

الصهيوني: "جرى ايه ... كان زمان بيضربوا بعض!"

(آخر ساعة، ١٧ نوفمبر ١٩٤٨)

شكل ٧٢: حرب فسطين ٢!

المصري أفندي: "ما تيجوا تضربوا معايا"

العرب: "حرام سته يضربوا واحد .. اضرب انت!"

(آخر ساعة، ١٠ نوفمبر ١٩٤٨)

ويصف أمين شاكر، أحد الضباط الأحرار والأهم أحد المشاركين في حرب ٤٨، الجيوش العربية بأنها كانت في حالة لا يرثى لها، والجيش المصري كان يعاني عجزًا شديدًا في الأسلحة والذخائر وكان يحارب بأسلحة بدائية تم إلغاؤها منذ زمن طويل. ويعتقد أمين شاكر بأن الإنجليز قد خدعوهم عندما شجعوهم على دخول الحرب ضد اليهود والتي ما

أن بدأت، حتى أغلق الإنجليز في وجه الجيش المصري أبواب المخازن السلاح والذخيرة[١]، بما يشكل نقضًا لمعاهدة ١٩٣٦.

وعن تجربته أبان الحرب، يروى شاكر كيف أن العمالة والخيانة قد انطوت على جو حرب ٤٨، فقد كان الجيش الأردني تحت قيادة "جلوب الإنجليزي"، أما الجيش السوري "فكان لا يزال يحبوا بعد خروج فرنسا من سورية"، وكان الجيش العراقي يتحرك تحت أوامر نورى السعيد "أكبر عميل لإنجلترا فى منطقة الشرق الأوسط"، فبعد أن كانت القوات العراقية على مقربة من حيفا وتل أبيب بـ ١٢ كم وفى غياب للقوات الإسرائيلية وبدلًا من أن تتجه صوبها لاحتلالها انسحبت لبغداد بأوامر من السعيد، ولم يكن هذا الانسحاب بالهين على عدد كبير من الضباط العراقيين الشرفاء الذين تمردوا ورفضوا تنفيذ الأوامر معتبرينها خيانة قومية، فأرسل السعيد قوة للقبض عليهم وإعادتهم قسرًا إلى بغداد ليتم شنقهم وعلنا، وتترك جثثهم معلقة على المشانق لما يقرب من أسبوع[٢].

كما يكشف شاكر السبب وراء إصرار أمير شرق الأردن (الملك عبد الله بن الحسين) أن يتم "إسناد قيادات القوات العربية له شخصيًا بحجة أنه الأدرى بميدان القتال نظرًا للتداخل الشديد بين الأردن وفلسطين..ولقد ظهر فيما بعد أن هذا الطلب كان بإيعاز من بريطانيا"[٣]، فقد ارتكب "خيانة لا تغتفر حيث كانت تصب عنده كل المعلومات عن موقف الجيوش العربية بدعوى التنسيق فيما بينها، ولكن ظهر أنه كان يقوم بإيصال تلك المعلومات أولًا بأول للحكومة الإنجليزية وللقيادة الإسرائيلية"[٤].

هناك أطروحة تقول بأنه في نوفمبر ١٩٤٧ قبيل النكبة تم اتفاق ضمني بين عبد الله والوكالة اليهودية على تقسيم فلسطين بين بعضهم البعض وبالتالي المساعدة في اجهاض ولادة دولة فلسطينية مستقلة، ولهذا دخل عبد الله حرب ٤٨ ليس لتحرير فلسطين إنما ليحصل على الضفة الغربية وهي الجزء المخصص للعرب الفلسطينيين في قرار التقسيم والقدس الشرقية. فضاعت فلسطين وتشرد أكثر من ٧٠٠٫٠٠٠ فلسطيني ليصبحوا لاجئين منتشرين في جميع أنحاء المعمورة، منهم ٤٥٠٫٠٠٠ استوطنوا داخل الأردن[٥].

---

(١) أمين شاكر، "أخطاء الثورة، الوحدة مع سوريا، تأميم الصحافة"، تقديم سليمان الحكيم، دار الخيال، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٩، ص: ١٥.

(٢) أمين شاكر، المرجع السابق، ص: ١٦ - ٢٨.

(٣) أمين شاكر، المرجع السابق، ص: ١٦.

(٤) أمين شاكر، المرجع السابق، ص: ٢٠.

(٥) ايفي شليم، المرجع السابق.

بعد إعلان الحرب توالت عدة رسوم كاريكاتورية تستخف بإسرائيل ويقدرتها على مواجهة العرب، فمرة نجد الرئيس الأمريكي ترومان يخاطب العربي قائلًا: "انت موش تعترف بدولة إسرائيل.." والعربي ومعه العدسة المعظمة لمحاولة رؤية قزم صهيوني رجله مصابة ويستند على عكاز (دلالة على استحالة بلوغ غايته): "اعترف بها ازاي وأنا موش شايفها ". وفي كاريكاتير أخر لصهيوني تحت السرير ينتفض من الخوف يحدث العربي قائلًا: "ان كنت شجاع ادخل لي تحت السرير !" وفي إحدى الرسوم الكايكاتورية، نرى العربي يدهس صهيوني بحذائه موجهًا خطابه للقوى العظمى مهددًا: "المرة ده موش ح اشيل الجزمة من فوق دماغه !"

الصهيونى ـ انت راح تسيبنى والا اخنقك !

شكل ٧٤: الصيهوني الجبان!

الصهيوني: "انت راح تسيبني والا اخنقك!"

(آخر ساعة، ١٦ يونيو ١٩٤٨)

تقدمت الجيوش العربية ووضعت يدها على العديد من المدن الفلسطينية ساعية لطرد العصابات الصهيونية شر طرده. وفي عز انتصاراتها وتحت ضغط من القوى الكبرى والأمم المتحدة تم فرض هدنة على ألا يزود أي من الطرفين بأسلحة أو يحسن من مواقعه خلال فترة الهدنة والتي كانت للأسف بمثابة سارينة الإنقاذ التي أعطت إسرائيل فرصة للتزود بالسلاح ومن ثم جمع شملها وتعزيز مواقعها وبالتالي تضرب ضربتها ضاربة بالهدنة عرض الحائط. أما العرب فقد سجل لهم التاريخ شهامتهم "المعهودة" أمام خرق الصهاينة للهدنة والذي قابلوه بمزيد من السلبية وقلة الحيلة.

فقد صدرت الأوامر من القاهرة بوقف إطلاق النار (الهدنة الأولى ١١ يونيو – ٧ يوليو ١٩٤٨) بناءً على قرار الأمم المتحدة مع أن الموقف في الميدان وقتها كان في صالح الجيش المصري حين صدرت الأوامر، وقد حذر بشدة دكتور محمود فوزي الذي كان يرأس وفد مصر في الأمم المتحدة في ذلك الوقت من قبول وقف إطلاق النار لأنه سيمنح اليهود فرصة لالتقاط الأنفاس وإعادة التسلح، ولكن لم يستمع إليه أحد، ليثبت صدقه فيما بعد، فلم تكن القيادة العسكرية في القاهرة مؤهلة لتقدير الموقف العسكري تقديرًا سليمًا[١].

وبالفعل كما كان متوقعًا، بعد أن استغل اليهود فترة الهدنة الأولى في تحسين موقفهم الحربي وإعادة تنظيم قواتهم، قاموا بخرقها. واقترح الوسيط الدولي الكونت برنادوت مد فترة الهدنة إلا أن العرب رفضوا اقتراحه وآثروا استئناف القتال رغم حالتهم السيئة[٢]! وكانت الهدنة الثانية في ١٨ يوليو ١٩٤٨ والتي تم اختراقها مرة أخرى من قبل اليهود[٣].

شكل ٧٥: خرق اليهود للهدنة!

الدول الكبرى للمصري أفندي: "بختك كويس ... لو أنت خرقت الهدنة زي ما خرقها اليهود .. كانت تبقى واقعتك سودة ..!"

(آخر ساعة، ١٦ يونيو ١٩٤٨)

ومع شدة هجوم القوات الإسرائيلية على رفح بهدف عزل القوات المصرية الموجودة في قطاع غزة، وافقت مصر على الدخول في مفاوضات فعلية مع اليهود جرت في جزيرة

(١) أمين شاكر، المرجع السابق، ص: ٢١.
(٢) محمد فيصل عبد المنعم، "أسرار ١٩٤٨"، تقديم أنيس منصور، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ١٩٦٨، ص: ٤١٦.
(٣) محمد فيصل عبد المنعم، المرجع السابق، ص: ٤٩٠.

"رودس" في ١٣ يناير ١٩٤٩، بين ممثلين عن مصر وممثلين عن حكومة إسرائيل وبواسطة ممثل الأمم المتحدة رالف بانش، والتي أسفرت عن توقيع اتفاق الهدنة بين الطرفين في ٢٤ فبراير ١٩٤٩، والذي أنهى حصار اليهود للقوات المصرية في الفالوجا، مع بقاء قطاع غزة تحت السيطرة المصرية.

رسمت هذه الهدنة شكلا آخر للمعارك الجارية لصالح إسرائيل والتي انتهت في ٣ مارس ١٩٤٩ بقبول العرب للهدنة الثانية التي كانت بمثابة النكبة. ولم ينته الأمر عند هذا الحد بل نشبت الخلافات بين الزعماء العرب، فأصبح ما يحدث بينهم بمثابة سلسلة من الكوميديا السوداء وبمثابة انتصار آخر للصهاينة في فلسطين. ونجد "المصري أفندي"، في الكاريكاتير التالي لصاروخان، يناشد الزعماء العرب تسوية الخلافات والانقسامات بينهم والتركيز على التصدي للعدو. وفي كاريكاتير آخر لصاروخان، يبشر ممثل الأمم المتحدة رالف بانش الرئيس الأمريكي ترومان بنجاحه في تقسيم الجامعة العربية أيضًا من جراء الخلافات. أما عبد السميع فيصور الحالة المؤسفة التي آلت إليها الجامعة العربية!

شكل ٧٦: الخلافات العربية!

المصري أفندي: "يا ما كان نفسي..نحارب خصومنا زي ما بنحارب بعض!"

(آخر ساعة، ١٣ ابريل ١٩٤٩)

شكل ٧٧: انتهاء مهمة الوسيط!

الدكتور بانش: "انا موش قسمت فلسطين بس .. أنا قسمت الجامعة العربية كمان!!"

(أخر لحظة، ٢٠ ابريل ١٩٤٩)

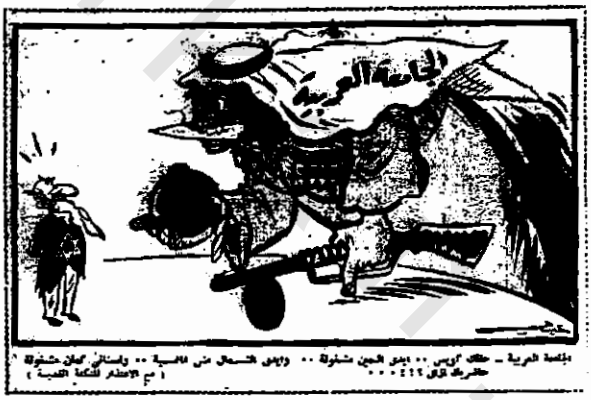

شكل ٧٨: الجامعة العربية!

الجامعة العربية: "حظك كويس . . ايدي اليمين مشغولة .. وايدي الشمال مش فاضية .. واسناني كمان مشغولة .. حاضربك ازاي؟!! .. (مع الاعتذار للنكتة القديمة)"

(روزاليوسف، ١٢ ابريل ١٩٥٤)

في الكاريكاتير التالي، يكشف صاروخان كيف أن سياسة القوى العظمى تكيل بمكيالين فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية. ففي الكاريكاتير، صهيوني يرتعد خوفًا وهو موجهًا سلاحه في اتجاه رجل عربي (فلسطين)، في حين تناشد القوى العظمي الرجل العربي بالسماح لهم بتكتيفه حتى يطمئن الصهيوني ويطلق النار! وفي كاريكاتير آخر، يستنجد العربي بالقوى العظمي التي تبدي تواطؤها مع إسرائيل.

الدول الكبرى للعربي ـ خلي عندك انسانية ، واسمح لنا نكتفك علشان الراجل المسكين ده يقدر يضربك بالرصاص !

شكل ٧٩: فلسطين والقوى العظمى ١!

الدول الكبرى للعربي "خلي عندك إنسانية، واسمح لنا نكتفك علشان الراجل المسكين ده يقدر يضربك بالرصاص!"

(أخبار اليوم، ١٧ يوليو ١٩٤٨)

شكل ٨٠: فلسطين والقوى العظمى ٢!

العربي: "أنا شايف حرامي تحت السرير"

الوسيط: "بقى تكذبنا كلنا وتصدق عينيك!"

(آخر ساعة، ٣ نوفمبر ١٩٤٨)

من المفترض أن الرسوم الكاريكاتورية في هذه الفترة كانت تتناول القضية بمنطقية وعقلانية، فهي تحسم الصراع بين ستة جيوش عربية ومجموعة عصابات صهيونية لصالح فلسطين. وصورت "الدول العربية" في الرسوم على هيئة رجل عربي ذي جسم مفتول طويل نسبيًا يرتدي جلبابًا أبيضًا وغترة وعقالًا، بينما صورت إسرائيل بصهيوني نحيل ذي أنف معقوف ولحية سوداء طويلة نسبيًا يرتدي جاكيتًا أو معطفًا أسودًا وقبعةً سوداءُ ذات حافة مستديرة، فكان الصراع بين الأبيض والأسود بين الخير والشر.

ويلاحظ أن خطوط صاروخان حادة وصريحة وتلعب بكثرة على الظلال الكثيفة والكتل السوداء. ويظهر الصهيوني في رسوم صاروخان في موقف الطرف الأكثر شرًا والأضعف، فهو دائمًا نحيل ومرتجف خوفًا و"سوداوي". في حين يُظهر الرجل العربي في موقف الأقوى، فهو دائمًا ضخم وعريض المنكبين. ولكن الغريب أن ملامح وجهه تخاصم أي فطنة أو ذكاء، فكثيرًا ما يظهر في ملامحه شيء من "الجبلة" ممزوجة مع بعض الغباء تصل أحيانًا إلى عدم الاكتراث أو عدم الوعي لما يدور من حوله وكأنه مسلوب الذهن والإرادة، مما يجعله من أسوأ ما رسم تجسيدًا للعرب.

وتفاعلت مع الأحداث الجارية الشخصيات الكاريكاتورية الأخرى المشهورة في تلك الفترة، حتى تلك التي اتسمت بخفة الدم وروح الدعابة مثل "رفيعة هانم" و"السبع أفندي" (نتاج مصطفى أمين رئيس تحرير أخبار اليوم آنذاك ورسام الكاريكاتير محمد عبد المنعم رخا) نزلت إلى قلب الميدان. فنجد "رفيعة هانم" وقد تعثرت بدلال في دبابة إسرائيلية، يطل منها جندي رافع يديه الاثنتين مستسلمًا، قائلة: "حوشن يا سبع أفندي ...يظهر إني عثرت في طوبة".

لا يمكن أن نتحدث عن حرب فلسطين بدون إلقاء الضوء على قضية الأسلحة الفاسدة التي اتخذت كذريعة لتبرير الهزيمة وفي نفس الوقت تحميل الملك والحكومة كامل المسؤولية[1]. يعتقد الكاتب الصحفي محمد حسنين هيكل، رئيس تحرير صحيفة الأهرام السابق، أن الملك فاروق كان يريد دخول فلسطين والفوز بالحرب للوقوف في وجه طموحات التوسع للمملكة الهاشمية. ولقصور في الأسلحة المصرية، عقد فاروق صفقة مع بريطانيا لتزويده بالأسلحة والمعدات الحربية. وبالفعل تم تزويد الجيش بمعدات وأسلحة

(١) ديريك هوبوود:

Derek Hopwood. (1993). Egypt: politics and society, 1945-1990. (3rd ed). London: Rout ledge.

تكفيه لمدة ثلاثة أشهر فقط، المدة التي كان يعتقد أنها كافية لإنهاء الحرب[١]. وخلال الحرب، تفاجئ الجنود أن المدفعية التي يستخدمونها كانت تنفجر في وجوههم بدلاً من وجوه الأعداء[٢].

ويعتقد أمين شاكر بأن حرب فلسطين مثلت نقطة تحول كبيرة في تشكيل تنظيم الضباط الأحرار الذي رأوا بأن الملك قد خانهم بما قدمه من أسلحة فاسدة قتلت من جنود الجيش المصري أكثر مما قتلت من اليهود[٣].

ويرى حسين حمودة، أحد الضباط الأحرار، أن المسؤول الأول عن إحضار الأسلحة الفاسدة لمصر هي اللجان التي أرسلت إلى أوروبا لشراء الأسلحة والذخائر، ويستبعد تمامًا أن يكون الملك فاروق شريكًا في هذه الجرائم لأن الملك هو القائد الأعلى للجيش وانتصار الجيش فخر للملك ولاشك في هذا، مع العلم أنه لم يرسل إلى ميدان القتال بفلسطين عام ١٩٤٨ أية أسلحة فاسدة لأن السلاح كان يجرب في مصر قبل إرساله إلى ميدان القتال[٤].

كما أن هناك رواية لأحمد فراج طابع، فنصل عام مصر في فلسطين وقتها والذي عاصر أحداث حرب ٤٨، والذي يؤكد فيها بأن قصة الأسلحة الفاسدة إنما هي افتراء على مصر، وأن الهيئة العربية العليا* برئاسة مفتي فلسطين أمين الحسيني هي التي باعت الأسلحة المصرية الجديدة واستبدلتها بأخرى قديمة وغير صالحة للاستعمال، ثم أرسلتها إلى اللجنة العسكرية بدمشق (على أنها رسالة مصر من الأسلحة) المسؤولة عن توزيع الأسلحة على سكان فلسطين حتى لا تعطي الأسلحة فريقًا دون فريق[٥].

---

(١) أميرة هويدي وأميمة عبد اللطيف:

Amira Howeidy & Omayma Abdel-Latif. (1998). On the eve of war. Al-Ahram Weekly. Issue 377. p.1

(٢)عفاف لطفي السيد:

Afaf Lutfi al-Sayyid Marsot. (1985). A short history of modern Egypt. Great Britain: Cambridge University Press.

(٣)أمين شاكر، "أخطاء الثورة، الوحدة مع سوريا، تأميم الصحافة"، المرجع السابق، ص: ٤٦.

(٤) حسين محمد أحمد حمودة، "أسرار حركة الضباط الأحرار والإخوان المسلمون"، الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٥، ص: ٦٣.

* الهيئة العربية العليا لفلسطين هي لجنة شكلت بموجب قرار من جامعة الدول العربية عام ١٩٤٦ وقد تولى رئاستها مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني

(٥) محمد فيصل عبد المنعم، "أسرار ١٩٤٨"، المرجع السابق، ص: ١٧٧-١٧٨.

ومع إلغاء الأحكام العرفية في مايو ١٩٥٠، بدأت الصحافة الوطنية تفتح النار على الفساد، وتحديدًا منذ ٦ يونيو بدأ إحسان عبد القدوس على صفحات "روزاليوسف" حملته الشهيرة على الأسلحة الفاسدة مما ألزم النيابة بالتحقيق وتوجيه الاتهام إلى القصر ورجاله المقربين من الملك(١).

بدأت الرسوم الكاريكاتورية على استحياء في الإشارة إلى قضية الأسلحة الفاسدة والمتورطين المحتملين بعد النكبة تقريبًا بسنتين، وكانت رسوم مباشرة ومن المدهش أنها لم تتعرض لمقص الرقابة. ففي كاريكاتير لصاروخان (انظر الكاريكاتير التالي) نشر "بأخبار اليوم" عام ١٩٥١ تعبير عن رفض المصريين لإبرام أي معاهدة جديدة مع بريطانيا، وإن أي تحدي من قبل مصطفى النحاس لإرادتهم سيكون بمثابة المدفعية الفاسدة التي ستنفجر في وجهه هو أولًا. نلاحظ أن كاريكاتير صاروخان كان يروج لتورط الوفد في قضية الأسلحة الفاسدة، في حين أشار عبد السميع في كاريكاتير له إلى ضرورة مساءلة وزير الحربية وقتها حيدر باشا عن قضية الأسلحة الفاسدة، وهو من الشخصيات المقربة لدى الملك. ففي الكاريكاتير، يتحدث "المصري أفندي" إلى وزير الحربية متسائلًا ما إذا كانت العصى التي يحملها "فاسده" هي الأخرى أم لا.

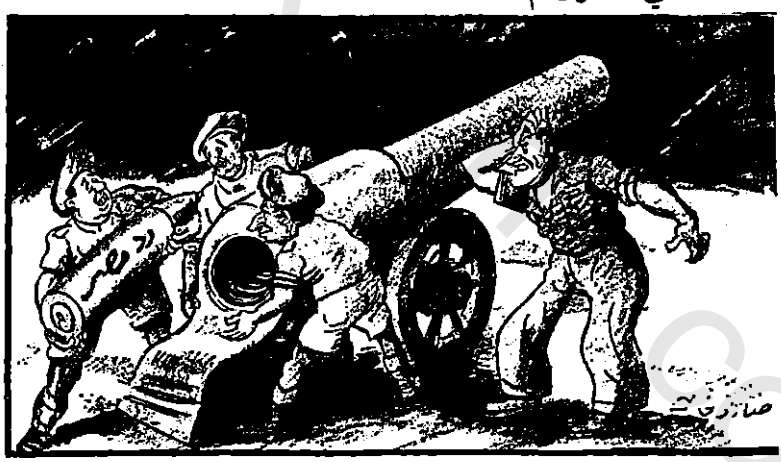

النحاس باشا لصلاح الدين بك ـ انا خايف ان المدفع ده يكون من الاسلحة الفاسدة اللى بتضرب الوراء !..

شكل ٨١: الأسلحة الفاسدة!

النحاس باشا لصلاح الدين بك: "أنا خايف ان المدفع ده يكون من الأسلحة الفاسدة اللي بتضرب للوراء!.."

(أخبار اليوم، ٢١ إبريل ١٩٥١)

(١) جمال الشرقاوي، "حريق القاهرة: قرار اتهام جديد"، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٧٧، ص: ٣٣.

شكل ٨٢: الأسلحة المغشوشة!

"تعود حيدر باشا ان يحمل في يده خزرانة"

"المواطن المصري: يا خوفي لتكون الخزرانة دي كمان مغشوشة!!"

(عبد السميع، ١٩٥٤[١])

كما شهدت هذه الفترة أيضًا انتشار ظاهرة "غنى الحرب" وخاصة بين أولئك ممن كانوا على مقربة من الملك، مما ساعد على انتشار الشائعات حول حجم الأرباح التي من الممكن أن يكون الملك وأتباعه قد حصلوا عليها من جراء صفقة الأسلحة الفاسدة[٢].

وظهرت العديد من الرسوم الكاريكاتورية التي تتناول ظاهرة "غنى الحرب" وتضعها في قالب فكاهي، وصورت "غنى الحرب" في هيئة شخص بدين جدًا وفاحش الثراء.

شكل ٨٣: غنى الحرب!

غنى الحرب: "الرواية كانت لذيذة .. انما عيبها أنها قصيرة!"

(أخبار اليوم، ١٢ مايو ١٩٤٥)

(١)عبد السميع عبد الله، أبيض وأسود، روز اليوسف، القاهرة، ١٩٨٦.

(٢) عفاف لطفي السيد: المرجع السابق.

حريق القاهرة ١٩٥٢:

في مدينة الإسماعيلية في صباح يوم ٢٥ يناير ١٩٥٢، أنذرت القوات البريطانية قائد البوليس المصري بتسليم القوات المصرية لأسلحتها فورًا وإلا ستهدم دار المحافظة وثكناتهم على من فيهم، إلا أن القائد المصري رفض التسليم وأصدر أمرًا لقواته بالمقاومة. وبالفعل نفذت القوات البريطانية تهديدها وأخذت تضرب دار المحافظة والثكنات بالمدافع والأسلحة الثقيلة، لتحولها إلى معركة دموية غير متكافئة أبدى فيها جنود البوليس المصريين مثالًا في البطولة والتضحية[١]. نتج عن هذا موت ٥٠ فردًا من قوات الشرطة المصرية وأصيب حوالي ٨٠ آخرين بجروح[٢].

في اليوم التالي، تظاهرت مجموعات من الشرطة في القاهرة للتعبير عن غضبهم وعن دعمهم لزملائهم بالإسماعيلية، وما لبث أن انضمت للشرطة مجموعات غفيرة من الطلبة والمواطنين من أماكن مختلفة من القاهرة في مظاهرات حاشدة تنادي بجلاء الإنجليز. وشهد ذلك اليوم أعمال عنف وشغب وتدمير وإحراق ما يزيد عن ٧٠٠ بناية شملت محلات وبارات وفنادق ودور سينما وقهاوي ومطاعم، ووصل عدد القتلى إلى ٣٦ وأصيب ٥٥٢ وشرد من جراء ذلك أكثر من ٥٠ ألف نسمة[٣]. انتشرت الحرائق لتغطي قلب القاهرة، وملئت سماء القاهرة بسحب الدخان الأسود لتكون سببًا وراء تسمية ذلك اليوم بالسبت الأسود، الذي يعتبر بكل المقاييس نكبة على الأمة لم تر القاهرة مثله طوال تاريخها البعيد.

حتى الآن لا يوجد إجابة شافية عن المتسبب في حريق القاهرة، الذي أعاد إلى الأذهان حريق الإسكندرية عام ١٨٨٢ والذي مازال يكتنفه بعض الغموض هو الآخر. هناك من يعتقد أن حريق القاهرة كان بفعل الجماهير الغاضبة، وهناك من يعتقد أنه من تدبير الملك فاروق، وهناك من يعتقد أنها مؤامرة حزبية، وهناك من يعتقد أنها مؤامرة أمريكية للقضاء على الشيوعيين، وهناك من يعتقد أنها مؤامرة بريطانية لتشيع الفوضى وتكون ذريعة لتدخلها في الشأن الداخلي وللقضاء على حركة الفدائيين المصريين في منطقة القنال والقضاء على حزب الوفد لإلغائه معاهدة ١٩٣٦ واتفاقيتي السودان ١٨٩٩.

---

(١)عبد الرحمن الرافعي، "مقدمات ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢"، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٧، ص: ٩٨.

(٢)صلاح منتصر، "من عرابي إلى عبد الناصر: قراءة جديدة في التاريخ"، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٣، ص: ٦٣.

(٣) جمال الشرقاوي، "حريق القاهرة: قرار اتهام جديد"، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٧٧، ص: ٢٩-٣٠.

وطالما نناقش حريق القاهرة، فلابد من الرجوع إلى كتاب "حريق القاهرة: قرار اتهام جديد" للكاتب الصحفي والباحث جمال الشرقاوي الذي أسدى لنا وللتاريخ صنيعًا وقدم لنا نتائج مدهشة تستحق التأمل والقراءة، عندما أعاد فتح أوراق هذا الحدث للوقوف على أسبابه وما إذا كان عفويًا أم مدبرًا، استمع وناقش أكثر من خمسين شاهدًا، وخاض تحديات عديدة لعدم توفر وثائق تحمل أدلة دامغة ممكن الاستناد عليها، كما أن السلطات التي أشرفت على التحقيق والصحافة في ذلك الوقت "لم تكن محايدة"، بل على العكس فقد على حد قوله "كتبت ما يضلل أي باحث"(١).

يؤمن العديد من الباحثين والسياسيين وعلى رأسهم الشرقاوي بأن النظرية التي تقول بأن الغوغاء أو الجماهير الشعبية الغاضبة هي التي أحرقت القاهرة عارية تمامًا من الصحة، وبالتالي فهم يختلفون تمامًا مع المؤرخ عبد الرحمن الرافعي الذي كان يرى بأن الحريق كان عملًا تلقائيًا وليس مدبرًا، فقد قال الرفاعي ما نصه: "كنت أود أن يسفر البحث والاستقراء عن تدبير الإنجليز أو فاروق حريق القاهرة، ولقد مضت عدة سنين وأنا أعاود البحث لعلي أصل إلى بيانات أو مجرد قرائن تثبت هذا التدبير، مثلما انتهى بي البحث والتحقيق إلى ثبوت تدبير الإنجليز لمذبحة الإسكندرية عام ١٨٨٢. ولكن الأمر في حريق القاهرة جاء على خلاف مذبحة الإسكندرية، وتبين لي مع شديد الأسف أن حريق القاهرة كان عملًا محليًا قامت به العناصر الرديئة من الشعب"(٢).

ووفقًا للشرقاوي، فإن الرافعي كان يحتاج إلى المزيد من البحث والتدقيق، فقد توصل إلى هذا الاستنتاج مبكرًا جدًا ونشره في كتاب "مقدمات الثورة" والذي صدرت الطبعة الأولى منه عام ١٩٥٧، كما أنه استند في دراسته وبحثه على بيان النائب العام وحده دون البحث بشكل أعمق في أوراق القضية والتحقيقات المختلفة أو الاستماع إلى شهود عيان، أو الاستماع إلى رأي رجال السياسة والإدارة الذين ارتبطوا بالحادث(٣).

كل المؤشرات في ذلك اليوم كانت تقول بأن حريق القاهرة بعيدًا كل البعد من أن يكون عفويًا، بل هو مدبرًا من قبل مجموعات مدربة ومعدة وموزعة وفق خطة محددة، وخلاف ذلك يناهض المنطق. فمن الثابت أن حريق كازينو أوبرا حدث في الساعة ١٢,٢٧، ومن الثابت أن الحريق الثاني كان بسينما ريفولي حدث في الساعة ١٢,٥٦، ومن

(١) جمال الشرقاوي، المرجع السابق، ص: ١٤.

(٢) عبد الرحمن الرافعي، المرجع السابق، ص: ١٢٦.

(٣) جمال الشرقاوي، المرجع السابق، ص: ٦٥.

الثابت كذلك أن فيما بين الساعة ١٥ , ١ و ٣٠ , ١، أي في خضون ربع ساعة فقط كانت النار تلتهم كل من سينما مترو، ومحل اكسلسيور، وأجانس فورد، ونادي الترف كلوب، وسينما ميامي، والمفوضية السويدية، وبار سيسيل، وسينما ديانا، ومطعم وبار الكورسال، والباريزيانا، وغيرها[١]. ألا يدعونا هذا للتساؤل من يستطيع أن يشعل النار في عشرة أماكن مثل هذه وفي ربع ساعة؟!! وفيما يبدو أن الحريق الأول عمد لتشتيت انتباه الشرطة، فمن الجدير بالذكر أنه وفقًا للشهود فقد مرت مظاهرة ليست بالضخمة بكازينو أوبرا، وفي وقت انشغال الشرطة والمطافئ بإخماد النيران، كانت الحرائق تشتعل في أماكن أخرى لم تمر بها أي مظاهرة!! كما لا ننسى أنه تم إحراق ٧٠٠ بناية من محل ونادي ودار سينما وملهى –أكبر محلات وسينمات مصر– في ظرف ٨ ساعات فقط[٢]!!

رأت النيابة العامة، أن حريق القاهرة كان مؤامرة حزبية، ففي ١١ مايو اتهمت النيابة العامة أحمد حسين رئيس "الحزب الاشتراكي" بحرق القاهرة[٣]. ومع عدم موضوعية الأدلة وظروف المحاكمة التي تعرض لها حسين، فيمكن القول بأن السلطات قد اختارت "الحزب الاشتراكي" و"كتائب الاشتراكية" التي تم تأليفها للجهاد الوطني ككبش فداء للمسؤولين الحقيقيين لحريق القاهرة لتهدئة الرأي العام، وأكبر دليل على ذلك أنه تم تبرئته هو وحزبه مما نسب إليهما بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

كل الخيوط تلتقي عند المستفيد الحقيقي من حريق القاهرة، وهو الاحتلال البريطاني والذي مؤكدًا لا يعمل لوحده، فلابد وأنه تسنى له منذ وجوده عام ١٨٨٢ أن يكون شبكة قوية من العناصر والعملاء سواء داخل السراي أو داخل الأحزاب، والذين يمكن استغلالهم سواء بعلمهم أو بدون علمهم بأبعاد المؤامرة[٤].

فما زال الإنجليز يذكرون الصفعة التي وجهها لهم الوفد بإلغائه المعاهدة، في ٨ أكتوبر ١٩٥١، أي قبل حريق القاهرة ببضعة شهور! والذي رفضته سلطة الاحتلال جملة وتفصيلًا وبدأت نتيجة لذلك تتحرش عسكريًا بالمظاهرات السلمية والعمال المصريين خاصة في منطقة القنال، كما اتخذت نبرة التهديد والوعيد في تعاملها مع الحكومة المصرية.

---

(١) جمال الشرقاوي، المرجع السابق، ص:.١٢٠.

(٢) جمال الشرقاوي، المرجع السابق، ص: ١٢١.

(٣) جمال الشرقاوي، المرجع السابق، ص: ١٣٩.

(٤) الدكتور محمد أنيس، "حريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢ على ضوء وثائق تنشر لأول مرة"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٢، ص: ٥٣.

وقد واجهت الحكومة الوفدية تحرشات سلطة الاحتلال بمزيد من الثبات والتحدي، فطالبت بعدم التعامل بتاتًا مع القوات البريطانية، وأعقبته بسحب السفير المصري- عبد الفتاح عمرو- من لندن، كتمهيد لقطع العلاقات الدبلوماسية نهائيًا، والتي تقرر أن يتخذ بها قرار من مجلس الوزراء في جلسة يوم ٢٧ يناير ١٩٥٢، أي قبل الحريق المزعوم بيوم واحد[١].

كما تسبب إلغاء المعاهدة في بدء الكفاح المسلح للفدائيين ضد قوات الاحتلال في منطقة القنال، والذي انضم لمعسكراته العديد من الشباب الجامعي من مختلف الاتجاهات والأحزاب، والإخوان المسلمون الذين كان لهم دورًا بارزًا في حركة الكفاح المسلح سواء داخل الجامعة أو في منطقة القنال، لما لهم من قدرات تنظيمية وخبرات بالعمل العسكري، وكان يقوم بتدريب المتطوعين لمعسكرات الفدائيين عدد من ضباط الجيش والبوليس الوطنيين[٢] لتصبح منطقة القناة شيئًا فشيئًا مسرحًا لكفاح مسلح منظم ومخطط لأن يكون حربًا تحريرية حقيقية[٣]. وهل هي صدفة أيضًا، أنه كان من المقرر في يوم ٢٦ يناير أن يجتمع رؤساء الأحزاب لتوقيع عقد اتفاق ينظم العمل في مجال الكفاح المسلح ضد قوات الاحتلال بين جميع الأحزاب والهيئات[٤]!!

في مساء يوم ٢٦ يناير، نزلت قوات الجيش المصري إلى الشوارع للسيطرة على الموقف، وأعلنت الأحكام العرفية. وفي اليوم التالي، تم إقالة حكومة الوفد، وأخمدت الحركة الوطنية المسلحة ضد القاعدة البريطانية في منطقة القنال. نلاحظ أن النتائج الأولية بسبب حريق القاهرة قد صبت في مصلحة الاحتلال بالدرجة الأولى!

وقد نفى فؤاد سراج الدين وزير الداخلية وقتها في بيان نشرته صحيفة "المصري" (١٠ فبراير ١٩٥٢) تهمة التراخي عن نفسه وصوبها تجاه قيادة الجيش المصري التي تقاعست عن مساندته، خاصة القائد العام للقوات المسلحة محمد حيدر باشا ورئيس هيئة أركان الجيش عثمان المهدي[٥]. فقد اتصل سراج الدين مبكرًا، فور إبلاغه بحريق سينما ريفولي ومترو وإدراكه بأن الأمر يسير وفق خطة مدبرة، بحيدر باشا الذي كان هو وقيادة الجيش على مأدبة الغذاء بدعوة من الملك فاروق بمناسبة عيد ميلاد ابنه، وطالب بإصدار

(١) جمال الشرقاوي، المرجع السابق، ص: ٥٠.
(٢)جمال الشرقاوي، المرجع السابق، ص: ٥١.
(٣) جمال الشرقاوي، المرجع السابق، ص: ٥٤.
(٤) جمال الشرقاوي، المرجع السابق، ص: ٥٧.
(٥) الدكتور محمد انيس، المرجع السابق، ص: ٣٩.

الأوامر بنزول الجيش لمساندة قواته في السيطرة على الموقف. وعندما لم يعاود الاتصال به أحد ليبلغه بتحرك الجيش، ذهب بنفسه إلى قصر عابدين حوالي الساعة ٢,٣٠ ليسأل عن سبب عدم نزول الجيش وقد مضى على مكالمته السابقة نحو الساعة موضحًا خطورة الموقف، وبالرغم من ذلك لم تظهر قوات الجيش في المدينة قبل ٦.٣٠[١]، في كارثة تفرق فيها الثانية!

وهنا نتساءل إذا كان أيضًا عفويًا أن تعقد المأدبة الملكية مع قيادات الجيش في قصر عابدين في نفس يوم السبت الأسود وفي وقت الظهيرة وقت تدبير الحرائق! كل القراءات أجمعت على أن فاروق قد علم بأمر الحرائق وهو على مأدبة الغداء، ومع ذلك لم ينهيها ويصرف ضباط الجيش للسيطرة على الموقف! كما أن ميعاد المأدبة نفسه غريب في وقت قد ترام إلى الأسماع وأكيد إلى أسماعه هو أيضًا استشهاد ٥٠ فردًا من قوات البوليس المصري الشرفاء، وبالتالي كان متوقعًا أن تخرج الجموع الغفيرة غاضبة ثائرة لقتلاهم، أما كان مناسبًا للملك أن يؤجل مأدبة الغداء لوقت آخر عزاءً لشهداء الوطنية!

لا أحد يعلم تحديدًا مدى تورط الملك في حريق القاهرة، ولكن لا خلاف على أنه أحد المستفدين من هذا الحريق، فصراع الملك مع حزب الوفد معلومًا عند الجميع، فلم يكن يستطيع الملك أن يقيل حكومة الوفد ذات الأغلبية الشعبية دون أن يكسب عداوة الشارع إلا في ظل ظرف مثل هذا. كما أنه ليس مستبعدًا أن يكون الملك قد مورس عليه ضغطًا من قبل سلطة الاحتلال لوقف الكفاح المسلح ضد القوات البريطانية في منطقة القنال.

كما أنه لم يستبعد تورط الولايات المتحدة الأمريكية في حريق القاهرة، وقد يكون تورطها بالتنسيق مع بريطانيا، إلا أن البراهين التي تؤيد الافتراضيتين ليست بالقوية، ولعل ما يحملنا على ذكر الولايات المتحدة هو نشاط أجهزة مخابراتها الملحوظ في السنوات الأخيره قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، ولأنها كانت معنية بضرب الحركات الوطنية وكانت حريصة كذلك على تصفية ما أسمته "بالحركة الشيوعية في مصر"[٢].

وأعرب بعض شهود العيان للشرقاوي بأنهم رأوا في الصباح الباكر من يوم ٢٦ يناير ملصقات جدارية استرعت انتباههم في وسط المدينة ومداخلها عليها صورة لمدينة القاهرة وهي تحترق وألسنة النيران تتصاعد منها ومكتوب عليها "الشيوعيون فعلوا ذلك"[٣]؟!!

(١)الدكتور محمد انيس، المرجع السابق، ص: ٣٣-٣٦.

(٢) جمال الشرقاوي، المرجع السابق، ص: ٤٦٤.

(٣) جمال الشرقاوي، العرجع السابق، ص: ٤٦٨-٤٧٢.

كما نرى فقد تجمعت العديد من "المصادفات" في ذلك اليوم بشكل كافي لتجعله غريبًا ومنافيًا للمنطق.

وكانت الصحافة وقتها غير مجدية في كشف ملابسات حريق القاهرة لبعدها عن الموضوعية، يعتقد الشرقاوي بأنه كان هناك معسكران للصحافة، المعسكر الوطني ومعسكر السراي والإنجليز. كان من الصحف التي تعبر عن المعسكر الأول، "المصري" و"روزاليوسف" و"الجمهور المصري" و"الاشتراكية" و"الكاتب" و"الملايين" و"اللواء الجديد"، بينما كانت صحف دار "أخبار اليوم" أحد أبواق المعسكر الآخر[1].

ولم تكن مواضيع الرسوم الكاريكاتورية متناسبة مع جلل الحدث، وقد يرجع السبب إلى إعلان الأحكام العرفية وما صاحبه كالعادة من تقييد لحرية الصحافة، كما أن ما حدث كان بمثابة اللغز تضاربت الأقوال بشدة حوله.

ففي ١٨ فبراير ١٩٥٢، نشرت "روزاليوسف" كاريكاتيرًا تنتقد فيه تعامل الأحزاب السياسية مع الأزمة، فبدلًا من أن تتكاتف الجهود لإطفاء حريق القاهرة، انشغلوا في التعارك مع بعضهم البعض. وفي كاريكاتير للرسام زهدي العدوي، تأكيد بأن الملك فاروق هو من أشعل حريق القاهرة.

شكل ٨٤: مأساة القاهرة!

(روزاليوسف، ١٨ فبراير ١٩٥٢)

(١) جمال الشرقاوي، المرجع السابق، ص: ٥٩٧.

شكل ٨٥: حريق القاهرة!
(زهدي، ١٩٥٢)[١]

ثورة يوليو ١٩٥٢:

تحمل ثورة يوليو ١٩٥٢ قدرًا كبيرًا من الأهمية لما لها من دور في تغيير الخريطة السياسية لمصر وللشرق الأوسط بعد أن وضعت نهاية لـ ١٤٨ عامًا حافلة لحكم سلالة محمد علي. وظهرت قراءات عديدة تبحث في شكل الفترة التي سبقت الثورة والتي يمكن تصنيفها إلى فئتين: الفئة الأولى وتشكل الأغلبية ترى بأن الثورة كانت نتاج طبيعي لسياسات وتصرفات غير مسؤولة من ملك عرف عنه الطيش والبذخ والترف واللامبالاة والضعف وموالاة الإنجليز ..الخ. والفئة الثانية وتشكل الأقلية ترى بأن الثورة هي نتاج حراك سياسي كبير لعبت فيه القوى العظمى دورًا ولو ثانويًا في إشعالها، وهي على نقيض ثورة ١٩١٩ لم تكن شعبية وإنما كانت سياسية عسكرية[٢].

تعرض فاروق للعديد من التحديات والضغوط من قبل الإمبريالية البريطانية والهيمنة الأمريكية نتيجة لتصديه لمحاولات تدخلها في حكمه. كما مر باضطرابات عديدة على المستوى الشخصي، نتيجة لتصرفات والدته الملكة نازلي غير المتزنة والتي دفعته لطردها هي وأخته فتحية من حياته، وإصدار قرارًا بحرمانها من دخول مصر ومصادرة جميع ممتلكاتها. كما مر على فاروق فترات عصيبة أخرى وهو يرتب لإجراءات طلاق شقيقته الكبرى الأقرب إلى قلبه فوزية من شاه إيران وترتيب رجوعها إلى مصر[٣].

(١) زهدي العدوي، قلم صلاح حافظ، "بداية المعركة"، دار الفن الحديث، ١٩٥٢، ص: ١٨٣.
(٢) وليم ستاديام:
William Stadiem. (2009). Too Rich: The high life and tragic Death of King Farouk. Parkway Publishing: London.
(٣) وليم ستاديام، المرجع السابق.

وعلى الصعيد الداخلي، كان هناك الحركات والمظاهرات الطلابية المتأثرة بالشيوعية، والقادة السياسيين المشتبهين بتورطهم في قضايا فساد، وأخيرًا الضباط الأحرار، الخلية الصغيرة التي تكونت داخل الجيش المصري بقيادة جمال عبد الناصر وأنور السادات والتي خططت لتقليب الجيش والشعب على القصر.

في ٢٧ ديسمبر ١٩٥١، كان موعد انتخابات مجلس إدارة نادي الضباط، اليوم الذي شهد الاختبار الحقيقي للضباط الأحرار ومدى نفوذهم داخل صفوف الجيش، عندما طرحوا رجلهم مدير سلاح الماشية اللواء محمد نجيب لينافس رجل الملك قائد سلاح الحدود اللواء حسن سري عامر على رئاسة النادي، وقد كان فاروق يهتم بشكل كبير أن يضع على رأس النادي أحد كبار الضباط االتابعين له والذين يدينون له بالولاء التام. ومخالفة لجميع التوقعات، فاز نجيب برئاسة النادي، فيما اعتبرت لحظة فارقة عكست ما آلت إليه علاقة الجيش المصري بالنظام، والتي يعتقد بعض السياسيين أنها كانت من مقدمات حريق القاهرة، بينما يعتقد البعض الآخر أنها أحد مقدمات ثورة يوليو ١٩٥٢.

ومع ذلك لم يعتقد فاروق ولو لوهلة بأن ثمة خطرًا ما على عرشه. فالمظاهرات التي تشهدها البلاد ليست موجهة ضده، إنما ضد البريطانيين الذين سبق وأن وعدوا بمغادرة مصر منذ عام ١٨٨٢، عندما دخلوها لتحقيق "استقرار" اقتصاد البلاد بعد أن تسبب في إفلاسها جده الأكبر الخديوي إسماعيل. كما أن مفهوم الملكية في مصر كان راسخًا منذ الفراعنة باعتبار الملك إلهًا بصرف النظر عن شعبيته، ومع أن هذا المفهوم قد تلاشى مع حكم المسلمين مصر في القرن السابع الميلادي إلا أن تمجيد الملك وتقديم فروض الطاعة والولاء له قد بقي. ومع سخونة الأحداث الحارية فر فاروق إلى الإسكندرية مصطحبًا معه أسرته[1].

تلقى فاروق وهو في الإسكندرية تحذيرًا من المكائد التي يعدها الضباط الأحرار ضده ومن احتمال وقوع انقلاب، ولكنه تجاهل التحذير، وقام بتعيين العقيد إسماعيل شيرين (٣٠ عامًا) وزيرًا للحربية والذي ليس لديه أي سجل خدمة مميز باستثناء أنه الزوج الثاني لأخته فوزية. وعندما وصل خبر التعيين هذا لناصر في ٢٢ يوليو كان بمثابة القشة التي قسمت ظهر البعير، ورأى ناصر بأن الوقت قد حان لثورتهم وإلا فلن تكون هناك ثورة

(١) وليم ستاديام، المرجع السابق.

أبدًا. وبالفعل نفذت خطة الهجوم وتم الاستيلاء على مقر قيادة القوات العامة المسلحة بالقاهرة في ساعة الصفر (الواحدة من صباح اليوم التالي) [١].

ويبدو أن القوى العظمى قد تحالفت هي الأخرى ضد فاروق، فعندما وصل الخبر فاروق اتصل بكل من السفير البريطاني لامبسون والسفير الأمريكي جيفرسون كافيري متسائلًا عما إذا كانوا سينقذوه، وكان واضحًا بأن الأمريكان قد أخذوا قرارهم مسبقًا بعدم التحرك لإنقاذه، أما بريطانيا وبعد مباحثات عدة قررت أن تأخذ هي الأخرى حذو أمريكا.

وفيما يبدو أن كلًا من بريطانيا والولايات المتحدة كانتا تبحثان منذ فترة في السبيل للتخلص من فاروق، دون أن تحوم حولهما الشبهات. فقد أشار خالد محيى الدين، أحد الضباط الأحرار ومؤسس حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي، في كتابه "والآن أتكلم"، بأنه في إحدى اجتماعاتهم للتمهيد للانقلاب، فجر جمال عبد الناصر مفاجأة عندما ذكر بأن حسن عشماوي أحد قادة الإخوان المسلمين قد أبلغه بأن "الإنجليز يريدون التخلص من الملك فقد أصبح مكشوفًا ومكروهًا من الشعب، ولم يعد قادرًا على ضمان مصالحهم"، كما أكد عشماوي بأن الإنجليز "طلبوا من الإخوان اغتيال الملك، لكن الإخوان رفضوا خوفًا من عواقب ذلك ضدهم" [٢].

ويعتقد حسين محمد حمودة، أحد الضباط الأحرار، أن الولايات المتحدة الأمريكية في أغلب الظن "هي التي حالت دون تدخل القوات البريطانية لحماية الملك فاروق"، وأنها قد أيدت الثورة فور قيامها، وأنه مما لا شك فيه أن المنظم الحقيقي لحركة الضباط الأحرار، الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، كان على صلة وثيقة بالسفارة الأمريكية [٣]. ويأتي هذا الاعتقاد موافقًا لما جاء في كتاب محيى الدين، والذي أشار إلى أن عبد الناصر قد رتب علاقة مع الأمريكان قبل الثورة "ومنحهم قدرًا من التطمينات من أن الثورة القادمة لن تقف ضدهم"، من خلال علي صبري [٤] مدير المخابرات العامة بعد ذلك.

وقد أعرب مصطفى أمين (أحد أعلام الصحافة المصرية) في حديث شخصي للكاتبة الصحفية سهير إسكندر، بأن ثورة ٢٣ يوليو في مرحلتها المبكرة كانت منحازة للولايات المتحدة الأمريكية، فقد كان معروفًا بأنه، عند قيام الثورة، كانت هناك اتصالات

---

(١) وليم ستاديام، المرجع السباق.

(٢) خالد محي الدين، "والآن أتكلم"، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٢، ص: ١٢٢.

(٣) حسين محمد أحمد حمودة، "أسرار حركة الضباط الأحرار والإخوان المسلمون"، الزهراء للإعلام العربي"، ١٩٨٥، ص: ٨٩.

(٤) خالد محيى الدين، المرجع السابق، ص: ١٧٨.

بين الثوار وجمال عبد الناصر بالذات والولايات المتحدة الأمريكية. كما كان معروفًا أن المخابرات الأمريكية "هي التي أنشأت المخابرات المصرية وفقًا لنضمها وأن العيب في هذا هو اطلاع المخابرات الأمريكية على كل العاملين في المخابرات وعلى نظمها"(١).

ويعتقد وليم ستاديم (William Stadiem)، كاتب السير الذاتية للمشاهير، أن علاقة فاروق بالأمريكان كانت سيئة للغاية، فعندما عاد كيرميت روزفلت إلى القاهرة في وقت مبكر من عام ١٩٥٢ كرجل وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، كان لديه أجندة خاصة يعمل وفقًا لها وهو إعداد الشرق الأوسط لاستقبال الديمقراطية الأمريكية والتأكد من أن أنابيب النفط التي تغذي الاقتصاد الأمريكي لن تجف. أصاب روزفلت السخط الشديد واليأس من فاروق الذي كان في كثير من الأحيان يتعمد تنفيذ عكس ما يمليه عليه، السخط الذي قاده في النهاية إلى الضباط الأحرار(٢).

ويعطي لنا السادات لمحة عن وضع الجيش المصري إبان الاحتلال في كتابه "أسرار الثورة المصرية"، ففي شتاء عام ١٩٣٨ وتحديدًا في منقباد..يقول السادات: "فقد كنا ضباطا صغارا..وكان لنا قواد..وكان هناك أيضا..إنجليز..! وكان قوادنا المصريون لا عمل لهم إلا إذلالنا..وإلا الانحناء أمام الإنجليز..وكنا نرى هذا الوضع الكريه، فنحترق..ونسخط..ولكننا لم نكن نستطيع أن نتكلم..وماذا يستطيع ملازم ثان أن يفعل في داخل النظام العسكري وفي تلك الأوضاع الرهيبة إلا أن يسكت، ويكظم الغيظ، ويدفن النار في حشاه."(٣)

كما كتب عبد الناصر في كتابه "فلسفة الثورة" أن "ثورة ٢٣ يوليو هي تحقيق للأمل الذي راود شعب مصر، منذ بدأ العصر الحديث يفكر في أن يكون حكمه رواد شعب مصر، منذ بدأ في العصر الحديث يفكر في أن يكون حكمه بأيدي أبنائه، في أن تكون له نفسه الكلمة العليا في مصيره"(٤).

استيقظ المواطنون في صباح اليوم التالي، الأربعاء ٢٣ يوليو، ليفاجئوا بأن هناك ثورة قد قامت وأن قوات الجيش تحتل مرافق القاهرة الحيوية وشوارعها. يرى المؤرخ عبد الرحمن الرافعي أن أول بيان لثورة ٢٣ يوليو (ألقاه السادات) جاء موجزًا ومحدود الأهداف، وفيه يتحدث نجيب عن أسباب الثورة قائلًا: "اجتازت مصر فترة عصيبة في تاريخها الأخير من

(١) د. سمير إسكندر، "موقف الصحافة المصرية من القضايا الوطنية ١٩٤٦-١٩٥٠"، تاريخ المصريين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الجزء الثاني، ١٩٩٦، ص: ٢٣٧.

(٢) وليم ستاديام، المرجع السابق.

(٣) أنور السادات، "أسرار الثورة المصرية: بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية"، تقديم جمال عبد الناصر، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥، ص: ٣٠-٣١.

(٤) جمال عبد الناصر، "فلسفة الثورة"، بيت العرب للتوثيق العصري، ١٩٥٤، ص: ١٤.

الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم، وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش، وتولى أمره إما جاهل أو فاسد، حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها، وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا، وتولى أمرنا في داخل الجيش رجال نثق في قدرتهم وفي خلقهم وفي وطنيتهم، ... وإني أؤكد للشعب المصري أن الجيش اليوم كله أصبح يعمل لصالح الوطن في ظل الدستور، مجردًا من أي غاية، ..."[1]

وصلت كتيبة مدرعة في صباح ٢٥ يوليو للقبض على فاروق وتم تبادل لإطلاق النار شارك فيه فاروق نفسه. وفي قلب المعركة، رأى فاروق بأن القوتين غير متكافئتين وأن سير المعركة على هذا النحو لا يعني سوى الانتحار. فقام باتصال أخير بكافيري يطلب منه إنقاذ حياته هو وأسرته، وهنا استجاب كافيري أخيرًا وأمر بوقف إطلاق النار.

وفي صباح اليوم التالي، ٢٦ يوليو، عرض رئيس الوزراء علي ماهر (المعين باختيار الضباط الأحرار) على فاروق إنذارًا صاغه السادات ووقع عليه نجيب، وفيه مطالبة فاروق بالتنازل عن العرش لابنه أحمد فؤاد وترك البلاد في نفس هذا اليوم قبل السادسة مساءً[2]. ومن سخرية القدر أن علي ماهر الذي كان رئيسًا للوزراء عندما جلس فاروق على العرش في ٩ مايو ١٩٣٦ كان رئيسًا للوزراء يوم طرده من العرش في ٢٦ يوليو ١٩٥٢.

ارتدى فاروق بزة البحرية الخاصة به عرفانًا منه على ولاء البحرية له، وغادر على يخت المحروسة وفي وداعه على ماهر ونجيب و٢١ طلقة بندقية. مغادرة فاروق بهذا الشكل تعيد إلى الأذهان نفس السيناريو الذي تم منذ ثلاثة أرباع القرن عندما أجبرت بريطانيا وفرنسا جده الأكبر الخديو إسماعيل على التنازل عن عرشه لابنه توفيق والرحيل إلى منفاه في نابولي على نفس اليخت ... المحروسة!!

عكست الرسوم الكاريكاتورية قبل الثورة الوضع الداخلي المتدهور دون الإشارة بشكل مباشر للملك فاروق، إذا تم نقده. فقبل الثورة، تحايل الرسام عبد السميع على الرقابة التي تمنع النقد المباشر للملك باختياره رموزًا ضمنية، والتي منها فردة البنطلون والحذاء الضخم اللامع. ففي إحدى رسومه، يظهر حذاء ضخم لامع وإلى جانبه رئيس الوزراء وقتها مصطفى النحاس محاولًا تقبيل "المصري أفندي" الذي يمتنع قائلًا: "ابعد عني ما تبوسنيش..أنت ريحة شفايفك

(١) عبد الرحمن الرافعي، "مقدمات ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢"، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٧، ص: ١٥٣.
(٢) وليم ستاديام، المرجع السابق.

ورنيش!!" وفي كاريكاتير آخر، النحاس يحدث نفسه وهو منهمك في تلميع فردة حذاء ضخمة قائلًا: "وظيفة رئيس الوزراء دي وظيفة متعبة خالص!!"

شكل ٨٦: وظيفة رئيس الوزراء!

(محي الدين اللباد، ١٩٨٧)[١]

ويفهم رجل الشارع بأن شخصية الغوريلا التي تظهر في رسوم عبد السميع إنما تدل على الملك بشحمه ولحمه حتى لو أطلق عليها "الفساد" أو "الغلاء". ففي الكاريكاتير التالي، "المصري أفندي" في حيرة بالغة من يحرب: الإحتلال أم الفساد.

شكل ٨٧: دوخان!

المصري أفندي: انتم دوختوني..أحارب الإنجليز، تقولولي حارب الفساد..أحارب الفساد، تقولولي حارب الإنجليز!!

(روزاليوسف، ١٨ فبراير ١٩٥٢)

(١) محيى الدين اللباد، "نظر"، العربي للنشر والتوزيع، ١٩٨٧، ص: ٥٠.

وبمناسبة "الاحتفال بيوم الدستور"، ظهر كاريكاتير لعبد السميع على غلاف "روزاليوسف" وفيه "المصري أفندي" يحمل فوق ظهره كتاب ضخم عنوانه "الفساد" ويتصدر غلافه وجه غوريلا. ويعتبر هذا الكاريكاتير من أجمل ما رسم في تصوير العلاقة بين المواطن المصري ودستوره، فثقل مواد الدستور ترمي بظلالها على ظهر "المصري أفندي" الضعيف، وتلعب دورًا كبيرًا في استشراء الفساد تحت الرعاية الملكية.

شكل ٨٨: بمناسبة الاحتفال بعيد الدستور!
"الدستور في مصر!!"
(روزاليوسف، ١٧ مارس ١٩٥٢)

وفي أول عدد لروزاليوسف بعد الثورة، رسم عبد السميع يد ممسكة بسيف (الثورة) توقف الغوريلا رمز الفساد من مهاجمة "المصري أفندي".

شكل ٨٩: قف!
(روزاليوسف، ٢٨ يوليو ١٩٥٢)

واحتفلت الرسوم الكاريكاتورية برحيل الملك ورحبت بمحمد نجيب قائدًا لمصر. فقد صور عبد السميع "المصري أفندي" يتوسط كل من على ماهر ومحمد نجيب على رصيف الميناء يتابعان رحيل الغوريلا (الملك) ويقذفونها بأواني "الزير" و"القلل". ويكشف هذا الكاريكاتير بوضوح كيف أن رمز الغوريلا التي عجزت الرقابة سابقًا على منع نشره كان للملك فاروق شخصيًا. وصور صاروخان محمد نجيب وقد قضى على غول الفساد (الملك)، كما صوره كدليل في الصحراء يقود المصري أفندي (شعب مصر) إلى طريق الخلاص حيث العدل والحرية.

شكل ٩٠: في وداع الفساد!

(روزاليوسف، ٤ أغسطس ١٩٥٢)

شكل ٩١: القضاء على الفساد!

(أخبار اليوم، ١٦ أغسطس ١٩٥٢)

شكل ٩٢: الحرية والعدل!

الدليل نجيب: الطريق متعب طويل!"

المصري أفندي: "موش مهم مادام ح نوصل..."

(أخبار اليوم، ١٨ أكتوبر ١٩٥٢)

obeikan.com